والآن أشرح هذه الآيات لأبيّن لكم ما أودع الله ﷻ هذه الرسالةَ التي تلقاها نبينا ﷺ في بدء الوحي من علوم ومعارف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿٢﴾

التفسير: ﴿اقرأْ﴾ هي أولُ كلمة نزلت على الرسول ﷺ، وقد تم بها الإعلان عن نبوءات عظيمة منذ ظهور الإسلام. إنها تعني أصلاً اقرأ الشيءَ المكتوب، ولكن من معانيها: أعلِنْ، وكلا المعنين ينطبقان هنا بشكل رائع. ونظرًا للمعنى الثاني لكلمة ﴿اقرأْ﴾ سيكون المراد من قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾: أعلِنْ عن هذا الكتاب باسم ربك الذي خلقك. مما يعني أن القرآن الكريم قد أعلن منذ أول يوم أن هذا الوحي ليس موجهًا لمحمد فحسب، بل هو لجميع الأمم والشعوب إلى يوم القيامة. بينما نجد أن أول وحي نزل على موسى عليه السلام هو: "فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ" (الخروجُ ٣: ١٠)، مع أن المهمة الأساسية للأنبياء أن يُطهِّروا قلوب الناس ويخلِّصوهم من عبودية الشيطان، وينوِّروا لهم سبل التقوى والطهارة، ولكن أول وحي لموسى عليه السلام لم يحْتَوِ على أي رسالة كهذه. كما لم يُذكَر هذا الأمر المهم في أول رسالة تلقاها عيسى عليه السلام، وإنما ورد فيه أن حمامة نزلت وجاء صوت من السماء "أنت ابني الحبيب". أما النبي ﷺ فقال الله تعالى له في أول وحي أنزله عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.. يا محمد، أعلِنْ بين الناس وأَخبِرْهم أن خالقهم وربهم يدعوهم إليه، وهكذا بين الله تعالى في أول كلمة من وحيه إلى محمد ﷺ أن رسالته رسالة عالمية تخاطب الأسود والأبيض، وأن مِن واجبه ﷺ أن يبلّغها إلى الناس أجمعين، ويعود بالذين قد انحرفوا عن العتبة الإلهية إلى خالقهم مرة أخرى.

ونظرًا إلى المعنى الثاني لكلمة ﴿اقرأْ﴾.. أي اقرأ الشيءَ المكتوب.. سيصبح قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ نبوءةً بأن وحي القرآن سيُكتَب، ثم يُقرَأ هذا الوحي المكتوب بكثرة. ويؤكد الواقع أنه ليس بين كلّ الأسفار السماوية سفرٌ واحد كُتب منذ بداية نزوله إلا القرآن الكريم. فهو الكتاب الوحيد الذي كان الله تعالى قد نبَّأ أنه سيُكتَب أولاً بأول، وهكذا ستتيسر الأسباب لحفظه منذ أول يوم، ثم قد تحققت هذه النبوءة حرفيًّا، فالمستشرقون مثل "نولدكه" و"ويري" و"وليام موير" كلهم يعترفون بهذا الواقع قائلين: ليس هناك سفرٌ بين الأسفار السماوية كُتب منذ أول يومه مثل القرآن الكريم.

(الموسوعة البريطانية، تحت: Koran

- The Life of Mahomet: by Sir William Muir p. 562-563
- The Quran, its composition and teachings p:40
- A Comprehensive Commentary on The Quran, by Wherry v.1 p. 109)

لا شك أن الأناجيل موجودة في الدنيا اليوم، ولكن ليس بوسع أي مسيحي الادعاء أنها دُوِّنت في حياة المسيح عليه السلام، بل يعرف الجميع أن متّى ومرقس ولوقا ويوحنا قد كتبوها بعد وفاة المسيح عليه السلام بفترة طويلة. لقد اعترف لوقا بهذا الأمر صراحة قائلا: "إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيقٍ، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ" (لُوقَا ١: ١-٤). فثبت أن الأناجيل لم يكتبها الحواريون، وإنما كتبها مَن التقوا بهم، بل لعله كتبها الذين التقوا مَن التقوا بالحواريين.

باختصار، ليس في العالم كتاب دوّن منذ أول يوم وفُرضت قراءته مرارًا إلا القرآن الكريم، ففي قوله تعالى ﴿اقرأْ﴾ نبوءة أن هذا الكتاب سيُكتَب وسيقال للناس أن يقرؤوه مرة بعد أخرى.

ثم قال الله تعالى ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. وقد أشار الله تعالى بإضافة كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ إلى موضوع جديد. الواقع أن الرب سبحانه وتعالى يؤمن به المشركون واليهود والمسيحيون

كلهم، ولكنهم جميعًا ينسبون إليه تعالى ما لا يليق به ﷻ. فمثلاً كان المشركون يعلنون إيمانهم بالله تعالى، ولكنهم كانوا يعبدون معه اللات والعزى وغيرهما من الأصنام. وكان النصارى يقولون نحن نؤمن بالله، ولكنهم اتخذوا عيسى ابنًا لله، وكان اليهود يؤمنون بالله، ولكنهم يعتقدون أن الله تعالى لن يوحي إلى أي أمة سوى اليهود. وكانت فطرة الرسول ﷺ تكره هذه الأمور كلها كراهية شديدة، فلم تكن تُسلِّم بالنظرية اليهودية، ولا بالفلسفة المسيحية، كما كانت ترفض أفكار الوثنيين بمكة. فعندما كان ﷺ يعبد الله تعالى ويدعوه في حرقة ولوعة في ظلمات غار حراء كانت كل هذه العقائد والأفكار تخطر بباله واحدة واحدة. كان يفكر أن اليهود يؤمنون بالله تعالى ومع ذلك يعتقدون عقيدة سخيفة بأن الله تعالى قد خصّ اليهود بمحبته دون الآخرين، ولن يتشرف أي إنسان سواهم بوحي الله تعالى. وكان ﷺ عندما يتدبر تعاليم المسيحية يقول في نفسه: لا شك أن المسيحية تؤمن بوجود الله تعالى، ولكنها تسيء إليه تعالى إساءة كبيرة باعتبار المسيح ابنًا لله. ثم كان يجول فكره في عقائد مشركي مكة، فكانت فطرته السليمة تفتي ببطلان تلك العقائد وتقول: لا يجوز عبادة اللات والعُزّى ومناة من دون الله أبدًا. وعندما كان يفكر باليهودية كانت فطرته تقول: كيف يؤمن الإنسان بإلهٍ ليس بمستعدٍّ أن يحب أحدًا سوى اليهود؟ وعندما كان يفكر في المسيحية كانت فطرته ترفضها وتقول كيف يكون صادقًا الدينُ الذي يقول أن الله تعالى بحاجة إلى ابن؟

باختصار، لم يكن النبي ﷺ يحتمل الشرك بأي شكل. كان ﷺ يعيش بين قوم ذوي أفكار وثنية، إلا أنه بسبب فطرته النقية كان يؤمن بالله الأحد القادر القيوم الأزلي الأبدي غير المتغير في صفاته، والذي ليس ابنًا لأحد، وليس له ابن، والذي هو خالق الجميع، والذي هو أسمى من أن يتعرض للأذى أو يُصلَب، والذي لا يخص قومًا دون قوم بكلامه ووحيه، بل يمنّ على كل فرد من العالم بقربه إذا بحث عن حبه ﷻ. إذن فقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يعني: اذهبْ وأعلِنْ اسم ربك في العالم؛ أي قُلْ: ليس أرباب الكافرين، بل الرب الذي اتخذته ربًّا هو الرب الحق وباسمه تنال كل البركات. فارفعْ اسمه في الدنيا مرة بعد أخرى، وادع

الناس إلى هذا الرب الذي أنت مؤمن به. مما يعني أن الله تعالى قد فنَّد الشرك في أول وحي أنزله على النبي ﷺ، وأخبره أن الناس وإن كانوا يؤمنون بوجود الله، ولكن ليس منهم مَن كانت عقيدته عن الله تعالى منـــزهة تمامًا عن الأفكار الوثنية؛ وإنما الله الذي أدركتَ أنت حقيقتَه، إنما الربّ الحقيقي للعالم هو من أيقنتَ به خلال عبادتك ليل نهار في غار حراء؛ وهنا نحن نأمرك أن أعلِنْ بين الناس عن ربك وأخبرْهم أن ربي قد أخبرني أن حقيقة الله كما فهمتُها هي الصحيحة، أما الاعتقادات الأخرى فكلها باطلة ومسيئة إلى الله تعالى.

إذن، فقوله تعالى ﴿رَبِّكَ﴾ تصديقٌ ربانيّ لسلامة اعتقاد رسول الله ﷺ، حيث أخبره الله تعالى بأن اعتقاد المسيحيين بأن "عيسى ابنُ الله" باطل، وأن ما فهمتَه أنت عن الله تعالى هو الصحيح؛ وأن اعتقاد المشركين بأن مناة واللات والعزى وغيرها من الأصنام تتصف بصفات الألوهية اعتقاد باطل، إنما العقيدة الصحيحة عن الله تعالى هو ما توصلتَ إليه؛ وأن قول اليهود بأن الله تعالى لا يكلّم غيرَهم اعتقاد خاطئ، وإنما الاعتقاد الصحيح ما تقول به بأن الله تعالى يكلّم جميع الناس؛ فاذهبْ وأعلِنْ بين الناس عن ربك أنت. وكأن الله يقول لرسوله إننا نؤيد النتيجة التي توصلت إليها بناءً على تأملاتك في غار حراء، فنأمرك أن تقوم بين الناس وتدعوهم إلى ربهم.

إذن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ تفنيد للوثنية والشرك، وإعلان عن سلامة عقائد الرسول ﷺ حول وحدانية الله ونزول الوحي، وكأن الله تعالى يقول: إننا نعلن أن ما تؤمن به يا محمد هو العقيدة السليمة وأما أفكار الآخرين وعقائدهم فهي باطلة.

يزعم خصوم الإسلام أن قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾(الضحى:٨) يعني أن محمدا كان ضالاً في البداية –والعياذ بالله– فهداه الله. ولقد فنَّدتُ هذا الزعم عند تفسير هذه الآية في مكانها، غير أن قول الله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أيضًا يبطل هذا الزعم. ذلك أنه لو كان الرسول ﷺ ضالاً في الواقع فكان ينبغي أن يقول الله تعالى له في أول وحيه إليه إن عقيدتك باطلة، وها إني أخبرك عن العقيدة

الصحيحة. ولكن الله تعالى لم يفنِّد أي فكرة ولا عقيدة للرسول ﷺ، بل أخبره أن معتقدك عن الله تعالى هو الحق، وأن ما يفهم الناس عنه تعالى هو الباطل. فثبت أن هذه الآية تؤكد أن التفسير الذي يذكره خصوم الإسلام لقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ تفسير باطل.

ويعترض البعض هنا قائلا: كان ينبغي أن يقول الله تعالى هنا: "اقرأْ اسمَ ربك"، ولكنه قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؟

وقد أجاب عليه النحاة بأن الباء هنا زائدة وتفيد التأكيد.

لا شك أن الباء في العربية تأتي زائدة للتوكيد أيضًا، ولا حرج بهذا القول، وعندها سيكون المراد من قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾: اذكُرْ اسمَ ربك وارفَعْ اسمه في الدنيا عاليا. غير أني أرى أن الباء هنا ليست زائدة بل هي للاستعانة، والمراد من هذه الآية: عليك أن تقوم بهذا الإعلان مستعينًا بِاسْمِ رَبِّكَ. وذلك كما تفعله الشرطةُ، فإنها إذا أرادت تفتيش بيت قالت لأهلها: افتحوا الباب باسم الحاكم، أي أن الحاكم قد منحَ لنا السلطةَ لتفتيش بيتكم فدَعُونا نقُمْ بمهمتنا، أما إذا منعتمونا من التفتيش فستُعَدّون مجرمين عند الحاكم. فمثلا لو ذهبت الشرطة لتفتيش بيت في قضية سرقة وحالَ صاحبُ البيت دون ذلك، رُفعت ضده قضية بأنه عرقلَ عمل شرطة الدولة ولم يفتح لها باب بيته رغم ما منَحَها الحاكم من سلطة. كذلك يقول الله تعالى هنا لرسوله: قُمْ في الدنيا باسم ربك وأَعلِنْ بين الناس أن الله تعالى قد أمرني بتبليغ هذه الأمور لكم، فلو رفضتم قولي فإنكم ترفضون أمر الله الذي بعثني والذي باسمه أُعلن رسالتي أمامكم. وكأن الله تعالى كما أعلن في قوله ﴿رَبِّكَ﴾ عن سلامة عقائد الرسول ﷺ أعلنَ بقوله ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ عن رسالته ﷺ، لأن الرسول إنما يقول إن الله تعالى قد أقامني لهداية الدنيا وباسمه أعرض عليكم دعواي.

وبناءً على هذا الشرح فإن المعنى المفصَّل لقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ هو: أَعلِنْ بين الناس عن اسم ربك الذي ليس عند أحد سواك إدراكُه الصحيح، وأخبِرْهم أن كل العقائد الأخرى عن الرب باطلة. كما بلِّغْهم التعليم الذي أنزلناه عليك، لأنه ليس خاصًّا بك، بل هو للبشرية كلها. سيُكتب هذا التعليم ويُقرَأ

بكثرة، فلا تقرأْه منفردًا بل اقرأْه على الناس لأن الله تعالى قد أرسلك لعرض هذا التعليم على الناس أجمعين. واعلم أنّا معك ونعلن أنك رسولنا الحق.

وهذا يعني أن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يحتوي على جميع المفاهيم التي تنطوي عليه الشهادتان. فكأن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يعني: "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله".. أي أنني أَعرِضُ أمامكم ذلك الإلهَ الأحد الذي تيسرتْ لي معرفته الصحيحة الحقة، وباسمه أدعوكم للإيمان به، فإذا لم تُلبّوا دعوتي ستكونون عند الله من المجرمين والآثمين، لأني رسوله وقمتُ باسمه. لقد أُمرتُ أن لا أُخفي هذا التعليم، بل أنشره في العالم وأوصله إلى الناس كافة.

باختصار، قد ضَمَّن الله تعالى هذه الآيةَ الشهادتين مِن أول يوم حين أمر رسوله أن يعلن بين الناس ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ﴾.. أي أنك رسوله وأن عقيدتك عن ربوبية الله تعالى هي الحق، وأنّ تبليغ هذه الرسالة إلى الناس واجبك.

هنا ينشأ سؤال: ما الحكمة في إضافة جملة ﴿الذي خَلَقَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾؟ فقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يتضمن مفهوم الخلق، لأن الرب هو مَن ينشئ الإنسان حالاً بعد حال إلى حد التمام. (المفردات)

والجواب أن من قواعد كل لغة أن بعض الكلمات تُستعمل أحيانًا بمعناها الخاص بدلاً من معناها العام. خذوا مثلا كلمة "الرب"، فإن العرب يطلقونها على ما سوى الله أيضا، فيسمّون سيدَ القوم ربًّا، لأنه يقوم بتربية القوم في نطاقه. والأب والأم والأستاذ كلهم أرباب من نوع معين، إذ يقومون بتربية الإنسان تربية جسمانية وعلمية. وفي اللغة العبرانية يُطلَق الرِّبِّيُّ على عالم الدين (الأقرب). فلو اكتفى الله تعالى بقوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ دون قوله تعالى ﴿الذي خَلَقَ﴾ فربما ظن البعض أن الرب لم يُستعمل هنا بمعناه العام أي: الله تعالى، وحتى لو لم يفكّر أحد هذا التفكير، فمع ذلك لم يتضح من قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ما إذا كانت كلمة الرب قد استُعملت هنا بمعناها الخاص أم بمعناها العام، إذ إن الأب والأم والأستاذ والمِلك والمعلِّم الديني كلهم يُسمَّون أربابًا؛ فدَرْءًا لهذا الإشكال أضاف الله

تعالى هنا قوله ﴿الَّذي خَلَقَ﴾، فبيّن أنه قد استعمل الرب هنا بمعناه العام الواسع.. أي الله الذي يقوم بربوبية عامة واسعة. فكأنه تعالى يقول: عليك أن تقوم بهذا الإعلان باسم ربك الذي خلق الخلائق وطوَّرها درجة فدرجة. فمعنى الرب: مَن يخلُق ثم يطوّر درجة فدرجة، ولكن حين تُستعمل كلمة الرب بمعناها الخاص يبقى في القلب شبهة ولا يعرف الإنسان إلى أي درجة من الربوبية تشير كلمة الرب هنا، هل إلى الدرجة البدائية أم الوسطية أم الأخيرة. فمثلا: عندما يطلق اليهودي على أحد اسم "الرِّبِّيّ" فيعني بذلك أنه منذ أن عَقِلَ الدينَ كان هذا الإنسان يعلّمه الدين ويربيه روحانيا. وإذا سمّى أحد المرضعة رَبّةً فيعني أنها قامت بتربيته منذ ولادته إلى أن قدر على المشي والجري. فلأن الربوبية أنواع ودرجات، لذلك أضاف الله هنا قوله ﴿الذي خَلَق﴾، فربوبية الأب تبدأ من مرحلة الغذاء من لحم وخضار وغيرهما مما يساعد جسمه على إعداد شيء يسمى النطفة. ثم تبدأ ربوبية الأم منذ مرحلة النطفة، فتربّيها وتطوّرها في رحمها، ثم بعدما تلد المولودَ ترضعه. أما إذا لم تستطع الأم إرضاع المولود لمرض أو لفقدان الحليب عندها، فتبدأ ربوبية المرضعة له. ثم عندما يعقل تبدأ مرحلة ربوبية الأستاذ له، وعندما يكبر أكثر تبدأ ربوبية عالم أكبر منه له. وعندما يصبح شابًا يتلقى الربوبية على يد إنسان رباني. ثم إن الملك يتولى تربيته.

باختصار، إن الربوبية أنواع ودرجات، بعضها فوق بعض، إلا أن كلمة الرب تُطلق على أي نوع وعلى أي مرحلة من الربوبية، ولذلك أضاف الله تعالى هنا قوله ﴿الَّذي خَلَق﴾ إلى قوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فبيّن بذلك أننا لا نعني من الرب ذلك الذي تبدأ ربوبيته من مرحلة النطفة أو مرحلة الولادة أو مرحلة نطق الإنسان وكلامه، أو مرحلة البلوغ والشباب، بل نعني ذلك الرب الذي تبدأ ربوبيته منذ زمن الخلق؛ أي منذ أن ظهرت المخلوقات. فنأمرك يا محمد، أن تبدأ دعوتك باسم ذلك الرب الذي تبدأ ربوبيته منذ زمن الخلق، فإنه لا يزال يؤيدك وينصرك منذ لم يقدر أحد من أقاربك ولا زملائك على نصرتك، ذلك الرب الذي تتضاءل أمام ربوبيته كل ربوبية أخرى بحيث لا يقدر أحد على أن يدعي الشركة في ربوبيته. غير أن المشايخ ينسبون إلى عيسى عليه السلام خلق الطيور فعلاً (معارف القرآن للمفتي

محمد شفيع، قوله تعالى: أني أخلق من الطين كهيئة الطير...)، وهكذا قد جعلوه شريكا في صفات الله تعالى مِن جراء عوجٍ في فهمهم.

وهناك أمر غريب آخر لافت للنظر هنا، وهو أن الله تعالى لم يقل هنا "الرب" بل قال ﴿رَبِّكَ﴾، ولكنه بعد ذلك لم يقل: "الذي خلقك" بل قال ﴿الذي خَلَقَ﴾.

الحكمة في ذلك أن ضمير الكاف في قوله تعالى ﴿ربك﴾ أُضيف تفنيدًا للشرك وتأييدًا لعقيدة الرسول ﷺ عن وحدانية الله تعالى، أما لو قيل: "الذي خلقك" بدلاً مِن ﴿الذي خَلَقَ﴾، لصار الموضوع الواسع محدودا جدا، لأن جملة "الذي خلقك" يعني الذي خلقك أنت فقط، أما قوله تعالى ﴿الذي خلق﴾ فيعني الذي خلقك وغيرك من المخلوقات كلها، وبتعبير آخر: الذي خلَقك وآباءك وأجدادك وغيرهم، وهكذا يصل الأمر إلى خلق آدم بل إلى خلق عناصر الكون وأجزائها. فذكرَ الله تعالى "الخَلْقَ" هنا مطلقًا ليشير إلى سعة صفة خلقه التي لا حدود لها، حيث بيّن تعالى أنّ عليك أنْ تعرض على الناس ذلك الإلهَ الذي أنشأ صلةً بين الخالق والمخلوق، والذي لم تظهَر صفةُ خلقه مِن خلالك فقط، بل لم تزل الدنيا ترى مشاهد خلقه منذ الأزل.

انظرْ إلى بلاغة القرآن المعجزة، حيث ذكر صفةً من صفات الله تعالى مقيدةً مرةً، وذكَر صفته الأخرى بدون تقييد توسيعًا للمعاني إلى أبعد حدّ. ومتى يقدر الإنسان على هذه البلاغة في كلامه؟!

ثم إن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يشير فيما يشير إلى كمال الرسالة المحمدية أيضا. ذلك أن الله تعالى لما قال للنبي ﷺ اعرضْ على الناس هذا التعليم باسم ربك الذي خلق الخلائق، فكأنه تعالى قال: لقد وضعنا الأساس لمهمّتك منذ أن خلقنا الكون، لذا فأَعلِنْ عن رسالتك بين الناس بنصرة وتأييد ذلك الإله الذي خلق الكون من أجل هذا الهدف العظيم، إذ لم تكن غاية خلق الكون إلا إظهار وجودك للعالم. إذن، فإذا كان قوله تعالى ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إعلان عن الرسالة المحمدية، فقوله تعالى ﴿الذي خلق﴾ إعلان عن كمال الرسالة المحمدية، حيث قال الله لرسوله: كنت غايتنا المنشودة الوحيدة منذ أن خلقنا الخلائق،

والوحي الذي أنزلناه عليك هو هدفنا المنشود منذ أن خلقنا أول إنسان في الدنيا، فنأمرك الآن أن تذهب إلى الناس وتقول لهم إن الوحي الذي نزل عليّ يبلغ من العظمة والسمو بحيث كان هو الهدف المنشود منذ أن خلق الله تعالى أول ذرة من هذا الكون، فلو كانت هذه رسالةَ اليوم ورفضتموها فلن تنجوا من عذاب الله أيضا، فكيف تنجون من عذاب الله تعالى بإنكار هذه الرسالة الإلهية العظيمة التي من أجلها وضع الله أساس العالم؟

باختصار، يقول الله تعالى لرسوله: اعرضْ هذا الوحي على الناس باسمي.. أي بصفة رسولي. لا تذهب إليهم بصفة شخص عادي، بل بصفة مسؤول رسمي من عندنا، وقل لهم لقد بعثني الله الذي خلق المخلوقات منذ البداية حتى اليوم.. أي أن الغاية التي من أجلها خلق الله الكون تتحقق اليوم من خلالي، فإن لم تؤمنوا بي فكأنكم اعتبرتم خلق الكون لغوًا. وإلى هذا المعنى نفسه يشير الحديث القدسي: "لولاك ما خلقت الأفلاك" (الموضوعات الكبرى للملا على قاري حديث رقم ٧٥٤). فكأن هذا الحديث القدسي شرحٌ لهذا المعنى الذي بيّنه القرآن في قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بيانا لطيفا.. أي أعلنْ نبوتك في العالم باسم ذلك الإله الذي وضع الأساس لمهمتك هذه منذ أن بدأ خلق الكون.

أما المفهوم الآخر لقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فهو: ادْعُ ربك لنصرتك مستعينًا بصفته التي تسببت في خلق الكون، وقلْ يا ربي الذي خلقتَ الخلائق، إذا كنتَ قد خلقتَها لتحرز الكمال الذي أنا مَظْهَرُه، فحَقِّقْ الهدف الذي بعثتَني من أجله. وكأن الله تعالى يأمر رسوله – بالإضافة إلى أن يعلن رسالته الكاملة للناس– أنه إذا أراد أن يدعو الله تعالى لتقدُّمه فعليه أن يدعو على الدوام قائلا: يا ربي الذي خلق الخلائق من أجل هذا اليوم، أتوسل إليك بصفتك "الخالق" أنك ما دمتَ قد خلقتَ الكون لهذا اليوم، وما دام قد حان أن يتحقق هدفك الذي أردتَه منذ الأزل، فانصرْني الآن نصرًا خاصا وباركْ في إعلان نبوتي.

فكأن الله تعالى يأمر رسوله: أعلنْ بين القوم أن الهدف الذي بُعثتَ من أجله ليس عاديا، بل هو هدف الله المنشود منذ أن بدأ خلق الكون؛ كما أن من واجبك

أن تدعو الله تعالى قائلا: رب اكتبْ لي النجاح في تحقيق الهدف الذي بعثتني من أجله، لأنني لو فشلتُ لبَطُلَت الغاية من خلق الكون، فأتوسل إليك بهذه الصفة التي تسببت في خلق الخلائق أن اكتبْ لي النجاح وجَنِّبْني الفشلَ، لأن فشلي يعني فشل المخلوقات كلها. وهكذا فقد كشف الله تعالى عظمة رسالة الرسول ﷺ، كما علَّمه طريق الدعاء بأسلوب لطيف.

لقد بينتُ من قبل أن قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ يعني: أننا قد خلقنا الإنسان لهدف عظيم، ولكن ذلك الهدف لم يكن قد تحقق بعد، ونحقّقه الآن بواسطتك يا محمد. ولو درسنا الواقع وجدنا أن كل إنسان -أيًا كانت ديانته- يؤمن أن الإنسان خُلق لهدفٍ وليس عبثًا. إن أتباع جميع الديانات متفقون على أن لخلق الإنسان غاية، ولكنهم يختلفون في كيفية تحقُّقها. فمنهم من يقول: لقد تحقق هذا الهدف في بداية الخلق؛ فالوحي الذي أنزله الله تعالى في البداية لهداية البشرية كان كافيًا لسد جميع حاجات الناس. هذه عقيدة الهندوس الآريين الذين يعتبرون "الفيدا" كتابَهم السماوي، حيث يؤمنون أن التعليم الكامل يجب أن ينـــزل فيه منذ بدء الخليقة. (أنوار حقيقت لجموبتي ايم اي، -وهي ترجمة أردية لِـــ ستيارتهـــ بركاش لـــ ديانند- الباب السابع ص ٢٠١-٢٠٤)

بينما نجد غيرهم يقولون إنه مما لا شك فيه أن هدف خلق الإنسان قد تحقّقَ، ولكنه تحقق تدريجيا على يد الأنبياء. فيقول اليهود: لقد بُعث آدم أولاً ثم نوح ثم إبراهيم ثم إسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ثم موسى ثم أنبياء آخرون حتى انتهى نزول الوحي عند النبي ملاخي.

عندما نتفحص هذه العقيدة اليهودية نجد أن هذه الغاية النهائية لم تتحقق لا في موسى ولا في ملاخي، لأن موسى لم يعتبر نفسه المقام النهائي، كما سنبين لاحقًا. أما ملاخي فلا يعتبره اليهود أنفسهم أفضل من موسى. والسؤال الآن: أين الذي يمكن أن يُعتبر النقطة النهائية من غاية خلق الإنسان؟ هل نسي الله هذه الغاية التي من أجلها خلق النوع البشري والعياذ بالله؟

ويقول النصارى إن عيسى عليه السلام هو النقطة الأخيرة من غاية خلق الإنسان. وهذا باطلٌ بداهةً لسببين: أولهما: أن النصارى يعتقدون أن المسيح ليس ابن الإنسان، بل هو ابن الله (يوحنا ١: ٤٩)، وحيث إنه ليس ابن آدم، فكيف صار النقطة الأخيرة من غاية خلق الإنسان؟ فإن الحديث هنا عن أبناء آدم، وليس عن ابن الله، ونبحث فيمن حقق الغاية من خلق الإنسان! وما دام الحديث هنا عن غاية خلق نسل آدم، فلا بد أن نبحث عن شخص من أبناء آدم صارَ الغايةَ المنشودة من خلق الإنسان.

وثانيهما: إن النقطة النهائية لشيء تكون آخرَ جزءٍ منه، فمثلاً إذا وضعتَ خطًّا فإن آخره يسمى نقطته الأخيرة، لكن عندما ندرس أمر المسيح عليه السلام نجد أن من المحال اعتباره النقطةَ النهائية لخلق البشر؛ لأنه ليس النقطة النهائية للخط الذي بدأ بآدم. إن آدم عليه السلام أرسى أساس الشريعة، فأضاف إليها نوح، ثم جاء إبراهيم وزاد فيها، ثم جاء موسى وقدّمها على الناس بشكل أكمل من ذي قبل. فسلسلة الشريعة بدأت من آدم، ثم ظلَّت تتطور وتكتمل بالتدريج على مر العصور، فلا يمكن أن يُعتبر النقطةَ النهائية لغاية خلق البشر إلا الذي يضيف إلى الشريعة السابقة ويكملها، أما الذي يعتبر الشريعة لعنةً ويفرّ منها فكيف يكون النقطة النهائية لغاية خلق البشر؟ لا بد أن تكون النقطة الأخيرة من الشيء من جنس النقطة البدائية منه. فإن النقطة النهائية لقطعةِ خشب –مثلاً– لا بد أن تكون خشبًا، وإذا زعم أحد أن النقطة الأخيرة للخشب هي الماء أو الهواء فقوله غير معقول. وإن آخر نقطة من سبيكة الذهب ذهبٌ، وآخر نقطة من قطعة الفضة فضة، وآخر نقطة من قطعة الحديد حديد، ولو قال أحد أن آخر نقطة من قطعة الذهب أو الفضة أو الحديد خشب فسيضحك عليه الجميع معتبرين كلامه هراء وغباء. هناك تسلسل للشريعة منذ زمن آدم، وعندما جاء نوح قدّم شريعة أفضل من ذي قبل، وعندما جاء موسى قدَّم شريعة أفضل من نوح. إذن، فلا يمكن أن يكون النقطة النهائية بعد موسى إلا الذي يقدم شريعة أفضل من شريعته، وليس الذي يعتبر الشريعة لعنةً أصلاً. فباطلٌ ادعاءُ المسيحيين أن المسيح هو النقطة الأخيرة لغاية خلق البشر.

أما ادعاء الهندوس أن الشريعة الكاملة نزلت في بدء الخليقة فقد فنّده القرآن الكريم بأدلة عقلية في هذه السورة نفسها، حيث قال: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.. أي أيها الناس انظروا إلى خلقكم كيف تمّ تدريجيا. فإنكم لا تصبحون عقلاء بالغين دفعة واحدة، بل تصلون إلى هذه المرحلة بالترقي شيئا فشيئا. إذا كان خلق البشر يتم بالتدريج ولا يُخلقون بشكل كامل في يوم واحد، فلماذا تنكرون التدريج في الأمور الروحانية؟ كلا، بل يتم الترقي في الروحانيات درجة بعد درجة كما في الماديات، ولا يمكن أن يبلغ الشيء الروحاني درجة الكمال فجأة من دون مروره بمراحله الارتقائية. والحق أن قانون التطور ليس ساريًا في خلق الإنسان فحسب، بل هو سارٍ في كل ما خلقه الله تعالى حتى الأشياء المادية؛ فالشمس أو القمر لم يُخلق أيٌّ منهما في يوم واحد، بل قد أثبت علماء الهيئة أن الشمس – مثلاً– كانت في البداية على شكل ذرات دخانية، ثم بدأت فيها حركة دورانية، ثم اقتربت هذه الذرات بعضها من بعض، ثم تشكلت في صورة مادة، ثم بعد فترة طويلة طالت مليارات السنين أخذت الشمس هذه الصورة. والحال نفسه بالنسبة إلى خلق الحديد أو الذهب أو الفحم أو الماس، فكلها خلقت بعد فترة تطوُّرٍ طويل. إن الفحم شيء بسيط جدًا، ولكنه أيضًا لم يُخلَق في يوم واحد، بل في مئات الآلاف من السنين. ولم يخلق الماس في يوم واحد، بل في ملايين الملايين من السنوات. ويقال أن الماس تخلق من الفحم (الموسوعة اليهودية المجلد ٧ تحت كلمة: Diamond). وهذا يعني أن الشجرة التي ظلت مطمورة في الأرض دهورًا تحولت أولاً إلى الفحم ثم إلى الماس. فلم يُخلق شيء إلا بعد مروره بمراحل ارتقائية كثيرة. وما دام هذا القانون الإلهي باديًا في الماديات، فكيف يقال إن الوحي الكامل نزل بمجرد أن خُلقت الخليقة؟ كلا، بل أن قانون التطور سار في الوحي والإلهام كما فيما خلق الله تعالى من أشياء مادية. من المحال أن يعمل قانون الارتقاء عمله في الأشياء المادية، ويكون نظام الوحي والإلهام من دون ارتقاء.

إذن، قد فنّد الله تعالى بقوله ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ عقيدة الهندوس بأن الشريعة قد نزلت كاملة في يومها الأول (نسخة خبط أحمدية، لباندت ليخرام، ص

٣٤٥). كلا، بل إن الإنسان لم يزل في تطور مستمر إلى أن بلغ مقام الشريعة الكاملة، وليس أنه أُعطِيها كاملة في أول يومه.

والسؤال الذي يوجهه إلينا الخصم هنا هو: ما دامت النظرية المسيحية باطلة، والفكرة اليهودية باطلة، والعقيدة الهندوسية باطلة، فكيف تحققت غاية خلق الإنسان إذن؟ تقولون إن العقيدة اليهودية باطلة لأنها تقول أن الوحي قد انقطع بعد النبي ملاخي، الذي هو نبي عادي، مع أن النقطة الأخيرة لخلق الإنسان يجب أن يكون أفضل من موسى عليه السلام، والنظرية المسيحية باطلة لإنكارها الشريعة أصلاً، والفكرة الهندوسية باطلة لأنها تقول بنـــزول الشريعة الكاملة منذ بدء العالم، مع أنها يجب أن تنـــزل في النهاية لا في البداية. فأَخْبِرونا الآن: بأي نبي تحقّقَ هدفُ خلق الإنسان إذن؟

قبل الرد على هذا السؤال أود القول: لقد بُعث إلى العالم آلاف الأنبياء حتى اليوم، ولكن معظمهم لا نعرف أسماءهم، دعك أن نعرف وحي الله الذي نزل عليهم! فيدعي الهندوس مثلاً أن كتابهم "الفيدا" نزل منذ بداية العالم، ولكن لا يمكنهم أن يثبتوا على مَن نزل الفيدا من الريشيين،★ وما داموا لا يعرفون هذا الأمر البسيط عنهم فكيف يمكن أن يعتبروهم غاية خلق الإنسان؟

أما أتباع الزرادشتية فيعتبرون زرادشت نبي الله، ولكن يوجد في كتابه أنباء واضحة عن بعثة نبي بعده (سرفنك دساتير ص ١٩٠)؛ مما يعني أنه لم يكن النقطة الأخيرة من خلق الإنسان، وإلا لم ينبئ عن بعثة نبي ذي شريعة بعده.

والآن نتفحص ما إذا كان أي من أنبياء بني إسرائيل هو الغاية من خلق الإنسان أم لا؟

★ كلمة "الريشي" يطلقونها على عالم دين هندوسي أو ناسك على شاكلة الرهبان في المسيحية، وقد أُخذت هذه الكلمة في الأصل من أربعة أشخاص نـــزل عليهم "الفيدا" كتاب الهندوس في بداية الكون حسب اعتقادهم، وكل واحد منهم يسمى "ريشي". (المترجم)

إن النبي الذي تعاليمه هي أكثر وضوحًا من تعاليم جميع أنبياء بني إسرائيل الآخرين هو موسى عليه السلام. كما أن الكتاب المقدس قد قدّم جزءًا من تعاليم إبراهيم أيضا. والسؤال الآن: هل كان إبراهيم عليه السلام النقطة الأخيرة للإنسان؟

إننا نجد أن الله تعالى قد قال لإبراهيم: "وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ" (التكوين ٢٢: ١٧-١٨).. أي ليس بواسطتك، بل بواسطة نسلك سوف تتبارك البلاد كلها. لقد جُعلتَ نبيًا لزمن محدود، ولأمة محدودة، ولكنا نريد أن تتبارك جميع أمم الأرض، ولن يتحقق هدفنا هذا من خلالك، بل من خلال نسلك.

وبغض النظر عن القوم الذين تحققَ بهم هذا الوعد الإلهي مِن نسل إبراهيم، أركّز هنا على أن هذه الكلمات تؤكد بوضوح أن إبراهيم عليه السلام لم يكن النقطة النهائية لغاية خلق الإنسان، لأن الله تعالى يقول له صراحة إنه ليس من خلالك بل من خلال نسلك فهيئ الأسباب بحيث تتبارك أمم الأرض كلها.

لقد تبين من ذلك أن النقطة الأخيرة لغاية خلق الإنسان سيكون مؤسسَ دين عالمي، إذ من المقدر أن تتبارك به جميعُ أمم الأرض، ولا يمكن أن تتبارك جميع أمم الأرض إلا بمَن يكون مؤسسَ دين عالمي، وبالتالي لا يمكن أن يُعتبر إبراهيم عليه السلام النقطة الارتقائية الأخيرة التي تتحقق بها غاية خلق الإنسان، إذ قد تنبأ أنه سيخرج من نسله شخص تتم على يده دعوة أمم الأرض كلها، ومن خلاله تتبارك أمم الأرض كلها، ومن خلاله تعرف الأمم كلها طرق الهدى وقرب الله تعالى. بتعبير آخر إن هذه النبوءة هي عن مؤسس دين عالمي، والشخص الذي كانت ستتبارك به جميع أمم الأرض هو الذي يكون الغاية النهائية للأنبياء، ولكن هذا الهدف لم يتحقق في زمن إبراهيم عليه السلام.

ولو قيل إن هذه النبوءة قد تحققت من خلال موسى عليه السلام، فهو قول باطل، لأن الديانة اليهودية أولاً خاصةٌ باليهود، ولم يُبعث موسى عليه السلام إلا لإصلاح اليهود فقط، في حين أن الله تعالى قد وعد إبراهيم عليه السلام أن أمم الأرض كلها سيتباركون من نسله وسيزيد نسله باستمرار حتى يرتقوا في مراحل التطور ليأتي يوم يتم فيه

دعوة العالم كله مِن خلالهم ويصل صوت الله تعالى إلى الدنيا كلها. وحيث إنه لم يتبارك بموسى عليه السلام إلا بنو إسرائيل، وحيث إن الديانة الموسوية كانت خاصة بهم، فلا يمكن أن تُعتبر مصداقا لهذه النبوءة.

وثانيا: يخبر موسى عليه السلام بنفسه عن مجيء نبي بعده، حيث قال: إن الله أخبرني بوحيه: "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لا يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذلِكَ النَّبِيُّ". (التثنية ١٨: ١٨-٢٠)

فموسى عليه السلام ينبه هنا أن نبيًا سيأتي بعده، وتكون معه شريعة جديدة، فقوله "مثلك" يعني أنه سيكون صاحبَ شريعة مثلك. فلو اكتفى بقوله: "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ" لكان المراد أنه أخبرَ عن بعثة نبي غير تشريعي ككثير من الأنبياء غير التشريعيين الآخرين المبعوثين في بني إسرائيل. لكن كلمة "مثلك" تبين أن هذه النبوءة لا تشير إلى بعثة الأنبياء الآخرين الذين أتوا في بني إسرائيل؛ إذ لم يكونوا مثل موسى، فهو صاحب شريعة وهم لم يأتوا بشريعة جديدة. فالأمر المهم في نبوءة موسى هذه هو أن ذلك النبي يكون صاحب شريعة مثل موسى، وأن الله تعالى سيلقي كلامه في فمه، مما يعني أن نبيًّا ذا شرع جديد كان سيُبعَث بعد موسى بحسب نبوءته. وما دام الأمر كذلك فلا يمكن أن يُعتبر موسى عليه السلام آخر نقطة من التطور الروحاني.

ثم يقول موسى عليه السلام في نبوءة أخرى: "جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مع عشرة آلاف قدوسي★، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ". (التثنية ٣٣ : ٢).

★ الكلمات التي تحتها الخط قد حرّفها المسيحيون في التراجم الحديثة، فسجّلنا هنا ترجمة الكلمات الواردة في الطبعة الأردية عام ١٨٧٠ مرزا بور الهند، والطبعة الأردية عام ١٩٢٢ برتش ايند فارن بائيبل سوسائتي اناركلي لاهور باكستان. (المترجم)

لقد تحدث موسى عليه السلام هنا عن ثلاث تجليات إلهية: فقوله: "جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ" يشير إلى ظهور موسى، وقوله: "وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ" يشير إلى ظهور عيسى. ثم تتحدث هذه النبوءة عن ظهور تجلٍّ ثالث بعدهما الذي يتمّ من فاران، ويكون بيد هذا الموعود شريعة نارية.

لقد تبين من هذه النبوءة أن موسى وعيسى -عليهما السلام- لم يكونا النقطة النهائية من سلسلة النبوءة، بل كان من المقدر أن يأتي مظهرٌ لله تعالى من جبال فاران حاملاً شريعة بعد هذين المظهرين الإلهيين اللذين ظهرا من سيناء وسعير. ولا شك أن الذي ظهر من جبال فاران هو محمد رسول الله ﷺ، لأن فاران هو اسم الجبال ما بين مكة والمدينة. وفي التوراة ما يؤكد ذلك، حيث ورد فيها في معرض الحديث عن إسماعيل عليه السلام: "وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ" (التكوين ٢١: ٢١). وأهل مكة أيضا يعتبرون أنفسهم من نسل إبراهيم عليه السلام. فثبت أن المظهر الرباني الذي ظهر من جبال فاران هو محمد رسول الله ﷺ، ومن خلاله تحققت هذه النبوءة لموسى عليه السلام.

ثم ورد في هذه النبوءة: "وَأَتَى مع عشرة آلاف قدوسي". وهذه الجزئية من النبوءة لا تنطبق إلا على النبي ﷺ. فالمسيح عليه السلام لم يكن له إلا اثنا عشر حواريًا، أحدهم باعه للعدو مقابل "ثَلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ" (مَتَّى ٢٦: ١٥)، والآخرون تفرّقوا عنه عند حادث الصليب. هناك إنسان واحد في العالم يؤكد التاريخ أنه قد أتى بعشرة آلاف قدوسي وهو نبينا ﷺ، إذ أتى لفتح مكة بجيش مكون من عشرة آلاف قدوسي (البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح). ثم إنه أتاها عبر الجبال التي تسمى جبال فاران، والتي قد جاءت نبوءة في التوراة بشأنها.

لقد تبين مما سبق بيانه أن موسى عليه السلام لا يعتبر نفسه النقطة الأخيرة لخلق الإنسان.

ثم تقول هذه النبوءة صراحة: "وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُم". وهذا يعني أن شريعة كانت ستنـــزل بعد موسى عليه السلام، وما دامت هناك شريعة باقية فلا بد من التسليم أنها ستكون أفضل من الشريعة السابقة؛ وبالتالي ثبت أن موسى عليه السلام لم يعتبر نفسه النقطةَ الأخيرة من التطور الروحاني.

وكان داود عليه السلام من أعظم الأنبياء الذين أتوا بعد موسى عليه السلام، تعالوا نر هل حقق هو هذا الهدف الأخير من خلق الإنسان؟

الجواب بالنفي، لأنه بنفسه يقول: "حَلْقُهُ حَلاوَةٌ، وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ. هذَا حَبِيبِي، وَهذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ." (نَشِيدُ الأَنْشَادِ ٥: ١٦)

لقد ورد في الطبعة الأردية للتوراة: "مثيرًا للعشق"، بدلاً من "وَكُلُّه مشتهيات"، بينما ورد في الطبعة العبرية "محمديم"، أي محمد. وكلمة "محمد" قد ترجمها عديد من المترجمين "مثيرًا للعشق" خداعًا ليخفوا اسم النبي ﷺ. ومثال ما فعلوه أن يقول أحد لغيره: إن محمدا قال كذا، فيترجمه غيره كالآتي: إن شخصًا صاحبَ حمدٍ قال كذا. فقد لجأ المسيحيون إلى خداع مكشوف عند ترجمة التوراة، مع أن كلمة "محمديم" لا تزال كما هي في الطبعات العبرية، ومعناها: محمد. لا شك أن "يم" في آخر "محمديم" للجمع، لكن عبارة هذه النبوءة كلها تبين بجلاء أنها عن شخص واحد، وقد استُخدمت صيغة الجمع تعظيما، وليس أن النبوءة تتحدث عن جماعة من الناس اسم كل واحد منهم محمد.

والعلامة الأخرى التي ذكرها داود عليه السلام لهذا الموعود: "حبيبي سليمٌ وأسمَرُ لا عَيبَ فيه، عَلَمٌ بَينَ عشرَة آلافٍ" (نَشِيدُ الأَنْشَادِ ٥: ١٠). وهي نفس العلامة التي ذكرها موسى عليه السلام في نبوءته عن هذا الموعود والتي تحققت عند فتح مكة.

إن أكبر نبي بعد داود هو إِشَعْيَاء -عليهما السلام- وله أهمية بالغة بحسب التوراة. تعالوا نر هل كان إِشَعْيَاء عليه السلام النقطة الأخيرة من خلق الإنسان؟ وهل يمكن أن يحقق الهدف الذي أراده الله تعالى؟

الجواب، لا، لأن إِشَعْيَاءَ نفسه يقول: "إِنِّي أُعْطِيهِمْ فِي بَيْتِي وَفِي أَسْوَارِي نُصُبًا✦ وَاسْمًا أَفْضَلَ مِنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ. أُعْطِيهِم اسْمًا أَبَدِيًّا لا يَنْقَطِعُ. وَأَبْنَاءُ الْغَرِيبِ الَّذِينَ

✦ قد وردت في الطبعة الأردية كلمة "نشان" (ومعناها: العلامة) مكان كلمة "نُصُبًا"، وفي طبعة عربية حديثة وردت كلمة "جاهًا" مكان كلمة " نُصُبًا". (المترجم)

يَقْتَرِنُونَ بالرَّبِّ لِيَخْدِمُوهُ وَلِيُحِبُّوا اسْمَ الرَّبِّ لِيَكُونُوا لَهُ عَبِيدًا، كُلُّ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ السَّبْتَ لِئَلاَّ يُنَجِّسُوهُ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِعَهْدِي، آتِي بِهِمْ إِلَى جَبَلِ قُدْسِي، وَأُفَرِّحُهُمْ فِي بَيْتِ صَلاتِي." (إِشَعْيَاء ٥٦: ٥-٧).

فإِشَعْيَاء عليه السلام ينبئ هنا أن الله تعالى سيعطي الأمة الربانية في المستقبل اسمًا جديدا، ويكون هذا الاسم جميلاً أبديًّا حتى يكون أحبَّ إلى الناس من أبنائهم وبناتهم. سيرضون بموت آبائهم وبناتهم، ولكن لن يرضوا بالتخلي عن هذا الاسم.

هذا الاسم هو اسم الإسلام الذي مُنح للمسلمين، والذي يخبر عنه إِشَعْيَاء عليه السلام أن الناس يحبّون هذا الاسم بحيث يمكنهم أن يتركوا بنيهم وبناتهم ويرضوا بقتلهم أمام أعينهم، ولكنهم لن يرضوا أن يتخلوا عن الإسلام ويُحرموا من هذا الاسم الجميل.

ثم يخبر إِشَعْيَاء: "وَأَبْنَاءُ الْغَرِيبِ الَّذِينَ يَقْتَرِنُونَ بِالرَّبِّ لِيَخْدِمُوهُ وَلِيُحِبُّوا اسْمَ الرَّبِّ لِيَكُونُوا لَهُ عَبِيدًا".. أي أن هذا الدين الجديد سيدخل فيه أمم أخرى. وهذا هو نفس ما قيل لإبراهيم عليه السلام بأن جميع أمم الأرض سيتبركون من نسله. فإِشَعْيَاء عليه السلام يؤكد نفس الأمر ويقول إن أمما أخرى ستدخل في هذا الدين وتحب الله تعالى وتحظى بقربه.

والخبر الثاني في هذه النبوءة أنهم لن يخالفوا السبت، ثم قال: "كُلُّ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ السَّبْتَ لِئَلاَّ يُنَجِّسُوهُ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِعَهْدِي، آتِي بِهِمْ إِلَى جَبَلِ قُدْسِي، وَأُفَرِّحُهُمْ فِي بَيْتِ صَلاَتِي".. أي أن هؤلاء القوم سيأتون ويسيطرون على هذه البلاد.

إن التدبر في نبوءة إِشَعْيَاء عليه السلام يكشف لنا خمس علامات: أولا: أن هذه الأمة ستُعطى اسما جديدا، ثانيا: أن هذا الاسم يكون أبديا ولن يمحى، ثالثا: ستنضمّ الأمم الأخرى لهذا الدين، رابعا: أنهم سيحافظون على السبت، خامسا: أنهم يؤتى بهم إلى مُلك بني إسرائيل فيستولون عليه.

ولا شك أن الدين الذي توافرت فيه هذه العلامات الخمس هو المصداق لهذه النبوءة.

لقد كان عيسى عليه السلام أكبر نبي خلا في بني اسرائيل بعد إِشَعْيَاء عليه السلام، ولكن لم يتحقق من خلاله إلا الاستيلاء على فلسطين من هذه العلامات الخمس.

ويقول إِشَعْيَاء عليه السلام: إن هذه الأمة توهب اسما جديدا هو أحبّ من الأبناء والبنات. وهذا الاسم لم يُعطَ إلا للمسلمين. يقول الله تعالى ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾(الحج:٧٩).. أي أن الله تعالى قد سماكم المسلمين منذ زمن قديم. أما النصارى فلا اسم لهم، فأحيانا يسمون نصارى وأحيانا مسيحيين وأحيانا عيسويين نسبةً إلى عيسى. وأما النصارى الإنجليز فيسمون أنفسهم: كريستيانز، وهذا ليس اسما في الحقيقة، إنما هو نسبة إلى المسيح عليه السلام. باختصار، لم يُعطَ المسيحيون أي اسم. قد أُطلق عليهم في الزمن الأول اسم، ثم اسم آخر، ثم اسم ثالث، وهكذا تغيرت أسماؤهم على مر العصور. أما الأمة التي أُعطيتْ اسمًا واحدًا من قبل الله تعالى لا من قبل إنسان، فهي الأمة المسلمة وحدها. وعن هذا الاسم نفسه تنبأ إشعياء إذ قال: "إِنِّي أُعْطِيهِمْ فِي بَيْتِي وَفِي أَسْوَارِي نُصبًا وَاسْمًا أَفْضَلَ مِنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ".

فلو ادعى المسيحيون أنهم مصداق هذه النبوءة، فهل يمكنهم أن يدّعوا أن الله تعالى قد سماهم مسيحيين؟ لا شك أنه يكون ادعاء باطلا تماما، إذ لا يثبت من التوراة إطلاقًا أن الله تعالى قد سماهم مسيحيين.

ثم تخبر هذه النبوءة "أُعْطِيهِم اسْمًا أَبَدِيًّا لا يَنْقَطِعُ".. أي أن الاسم الذي يوهب لهذه الأمة سيبقى للأبد ولن يتغير أبدًا رغم انقلاب الزمان واختلاف البلاد والمناطق.

وهذه الجزئية من النبوءة أيضًا لا تنطبق على المسيحيين أيضا، فلا اسم لهم أولاً، وثانيًا تتغير تسميته على مر الأيام باستمرار.

والخبر الثالث في هذه النبوءة أن أولاد الغرباء يدخلون في هذا الدين. ولكن المسيح عليه السلام يقول للحواريين: ليس مسموحًا لكم تبليغ الأمم الأخرى وضَمُّهم إلى دينكم.

والخبر الرابع في النبوءة أن هذه الأمة تحافظ على السبت. لكن الأمة المسيحية قد غيرت السبتَ إلى الأحد إرضاءً لملوك الروم، وهكذا هتكت حرمة السبت، بدلاً من الحفاظ عليها. (موسوعة الأديان، المجلد ١٢ ص ١٠٤ تحت كلمة: Sunday in the Primitive Church)

إذن، فالاستيلاء على فلسطين لن يُعتبر علامةً على تحقُّقِ نبوءة إِشَعْياء إلا في حق أمة توافرت فيها العلامات الأربع الأخرى، لأن الاستيلاء على فلسطين وحده ليس بشيء، فالرومان أيضا قد استولوا عليها.

و لم تتوافر هذه الشروط الأربعة في أمة غير المسلمين.

فأولاً: إن الله تعالى نفسه قد أطلق هذه التسمية على المسلمين حيث قال ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾(الحج:٧٩)

ثانيا: هذه التسمية أبدية، ولا يقدر على تغييرها أحد. يُسمَّى المسلم في أي بقعة من بقاع الأرض مسلمًا على الدوام.

ثالثا: دخول أولاد الغرباء.. أي الأمم الأجنبية.. جائز في الإسلام فقط، وهذا هو الدين الذي لم يخص دعوته بقوم، بل يبلغ رسالة الله الأحد لكل العالم.

رابعا: المسلمون هم المحافظون على السبت، إذ احترموا الجمعة دائما، و لم تخطر ببالهم فكرة تغييره قط.

خامسا: قد استولى المسلمون على فلسطين، وقد استمر حكمهم عليها ثلاثة عشر قرنا، ولا يزالون حاكمين عليها✦.

إذن، فنبوءة إِشَعْياء عليه السلام أيضًا تؤكد أنه لم يكن النقطةَ الأخيرة في الارتقاء الروحاني للبشرية، ولا يمكن القول أن غاية خلق الكون قد تحققت من خلاله، لأنه بنفسه يخبر عن بعثة نبي عظيم بعده.

ثم جاء المسيح عليه السلام. فهل كان الغاية من خلق الإنسان؟ الجواب: كلا، وذلك للأسباب التالية:

✦ علمًا أن هذا التفسير قد طبع في عام ١٩٤٦. (المترجم)

أولاً: ليست الديانة المسيحية من نسل إبراهيم عليه السلام، بل ليس المسيح عليه السلام نفسه من نسل إبراهيم، إذ كان المسيح ابن الله بحسب اعتقاد المسيحيين، وما دام ابنَ الله فكيف يمكن أن يُعَدّ من نسل إبراهيم؟ لقد قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: "وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْض". فلا يمكن أن تتحق هذه النبوءة إلا في شخص هو من نسل إبراهيم، وليس في شخص يسمّي نفسه ابن الله.

ولو قال النصارى إن جميع أمم الأرض تباركت من المسيح، قلنا: إن هذه النبوءة الإبراهيمية كانت ستتحقق في شخص غير المسيح، ذلك أن الله تعالى قد أخبر فيها أن الذي يكون النقطةَ الأخيرة لغاية خلق الإنسان سيكون مِن نسل إبراهيم، وعلامته أنه سيكون مؤسس دين عالمي، وسيدعو جميع أمم الأرض إلى دعوة الحق. فإذا كان المسيح قد دعا جميع أمم الأرض فعلاً فهو لم يكن مصداق النبوءة الإبراهيمية لأنها تتعلق بشخص يكون من نسل إبراهيم. ولو سلّمنا جدلاً أن المسيح كان من نسل إبراهيم رغم كونه بغير أب، فأيضا سنقول إن هذه النبوءة لم تتحقق في المسيح، لأن الديانة المسيحية ليست عالمية، فإن المسيح عليه السلام نفسه يصف نفسه: "جاء ابن الإنسان ليبحث عن الضالين المفقودين وينقذهم✦" (متى ١٨: ١١).. أي لم يكن غرض بعثة المسيح إلا أن يجمع بني إسرئيل المشردين – في عهد نبوخذنصر– إلى أفغانستان وكشمير وغيرها من المناطق. فلم تكن رسالة المسيح عليه السلام موجهة إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.

ثم لم تكن التوراة للأمم الأخرى، بل كانت خاصة باليهود بحسب إجماع المسيحيين، ويتضح من الأناجيل أن التوراة لم تكن منسوخة، حيث صرح المسيح عليه السلام أنه لم يأت لينسخ التوراة فقال: "لا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ"

✦ العبارة التي تحتها الخط هي ترجمة ما ورد في الطبعة الأردية، أما ما جاء في الطبعة العربية فهو: "لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ قَدْ جَاءَ لِكَيْ يُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ." (المترجم)

(مَتَّى ٥ : ١٧-١٨). فثبت أن التوراة كانت قائمة إلى زمنه بحسب اعتراف المسيحيين، فثبت أيضًا أنها كانت لليهود فقط لا للعالم كله، وثبت أيضًا أن المسيح عليه السلام لم يكن النقطة الأخيرة لغاية خلق الإنسان.

ثم إن المسيح عليه السلام لما بعث حواريه الاثني عشر للدعوة أوصاهم قائلا: "إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لا تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لا تَدْخُلُوا، بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَات." (متّى ١٠: ٥-٧)

فالمسيح عليه السلام هنا لا ينهى الحواريين عن دعوة الأمم الأخرى فحسب، بل ينهاهم عن دخول مدينة السامريين. والسامريون قوم اختلطوا ببني إسرائيل، وكانوا يُسمَّون نصف إسرائيليين، ومع ذلك يعتبر المسيح دعوتهم حرامًا، ناهيك أن يسمح بإدخال الأمم الأخرى في دينه. فثبت أن النبوءة الإبراهيمية هذه لم تتحقق من خلال الديانة المسيحية، لأن تلك النبوءة تخبر أن جميع أمم الأرض ستتبارك من نسل إبراهيم، بينما نجد مؤسس الديانة المسيحية يوصي حواريه الإثني عشر ألا يقوموا بدعوة الأمم الغريبة، بل بالحري يقوموا بدعوة اليهود فقط. فثبت أنه لا يمكن القول أن الديانة المسيحية قد جاءت لتمنح البركة للأمم كلها.

ولا ينخدعن أحد بكلمة "بالحريّ". فبعض المسيحيين يقولون -بناءً على كلمة "بالحري"- أننا أُمرنا بدعوة بني إسرائيل أولاً، وليس ألا ندعوَ أية أمة سواهم. ولكن قولهم هذا ليس صحيحا للأسباب التالية:

أولا: الواضح أنه ما لم يؤمن جميع بني إسرائيل بالمسيح، فإن تبليغ الأمم الأخرى ممنوع، وحيث إن اليهود موجودون حتى اليوم فلا يحق للمسيحيين تبليغ الأمم الأخرى.

وثانيا: لقد شرح المسيح عليه السلام نفسه وصيته هذه بقوله: "فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لن تُنهُوا عَمَلَكم في مُدُنِ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الإِنْسَان" (مَتَّى ١٠: ٢٣).

فقد بيّن عليه السلام للحواريين أنهم لن ينتهوا من تبليغ بني إسرائيل قبل مجيئه الثاني، وهذا يعني أن من المحتّم أن تقوم أمته بتبليغ بني إسرائيل حتى مجيئه الثاني، ولا يجوز

لهم تبليغ أي أمة أخرى حتى ذلك الوقت. نعم سيتم تبليغ الأمم كلهم بعد بعثته الثانية.

فلا بد من تفسير قوله ﷺ "بالحري" على ضوء معنى كلامه الآخر، وهو: أنه لا يجوز للمسيحيين تبليغ أي أمة سوى اليهود حتى زمن بعثة المسيح الثانية، فإنه يقول صراحة أنكم لن تنتهوا من تبليغ اليهود حتى آتي مرة ثانية، مما يعني أن من واجبكم أن تَقْصُروا دعوتكم على اليهود حتى بعثتي الثانية، فعندما آتي ثانية فيجوز لكم دعوة جميع الأمم.

ثم يقول المسيح ﷺ: "لَمْ أُرْسَلْ إِلاّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّة" (مَتَّى١٥: ٢٤). فهنا قد زاد الأمر إيضاحا، وحدّد دائرة دعوته وقال لا علاقة لي بأي أمة إلا أمة بني إسرائيل. فما دامت بعثة المسيح ﷺ خاصة بالقبائل الإسرائيلية، فكيف يمكن أن تكون مصداقًا لهذه النبوءة الإبراهيمية؟ لقد قال الله تعالى لإبراهيم ﷺ أن جميع أمم الأرض ستتبارك من نسله، بينما يقول المسيح ﷺ لم آت لأبارك جميع أمم الأرض بل بني إسرائيل فقط.

ثانيًا: لم يأت المسيح ﷺ بشريعة جديدة، مع أن جميع النبوءات تكشف أن الآتي سيأتي بشريعة جديدة. إذن، فلا يمكن أن يعتبر المسيح النقطة الأخيرة من غاية خلق الكون.

ثالثًا: يقر المسيح ﷺ نفسه أن ذلك "النبي" سيأتي بعد بعثته الأولى وقبل بعثته الثانية، حيث ورد: "الَّذِي يَنْبَغِي أَنَّ السَّمَاءَ تَقْبَلُهُ إِلَى أَزْمِنَةِ رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ، الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا اللهُ بِفَمِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ. فَإِنَّ مُوسَى قَالَ لِلآبَاءِ: إِنَّ نَبِيًّا مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ. لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ، وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ لا تَسْمَعُ لِذلِكَ النَّبِيِّ تُبَادُ مِنَ الشَّعْبِ. وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ أَيْضًا مِنْ صَمُوئِيلَ فَمَا بَعْدَهُ، جَمِيعُ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا، سَبَقُوا وَأَنْبَأُوا بِهذِهِ الأَيَّامِ". (أَعْمَالُ الرُّسُلِ ٣: ٢١-٢٤)

يوضّح الحواريون هنا ما أخبرهم المسيح ﷺ بأنه لا بد أن يأتي ذلك النبي الذي لم يزل الأنبياء يخبرون عن مجيئه قبل مجيء المسيح ثانيةً، ولا بد أن يتحقق قبل بعثة

المسيح الثانية خبرُ بعثة النبي المشرع الذي ورد في النبوءات. وهذا يعني أن المسيح لا يمكن أن يكون مصداقًا لهذه النبوءة الإبراهيمية، بل إن مصداقها هو ذلك النبي الموعود الذي يكون صاحب شريعة والذي يُبعث ما بين بعثة المسيح الأولى والثانية.

قد يقول المسيحيون هنا إن اعتباركم محمدًا (ﷺ) الغاية من خلق الكون خطأٌ، بل إن المسيح سيظل هو الغايةَ من خلق الكون حيث سيأتي ثانيةً بعد هذا النبي الموعود صاحب الشريعة.

ولكنا نقول: هذه القضية أيضا قد حُسمت، لأن المسيح الثاني الموعود بعثته قد بُعث بفضل الله تعالى، وقد أعلن للعالم أنه خادم محمد رسول الله ﷺ، وأن ما ناله إنما ناله من فيوضه ﷺ، لذا فلا يصحّ القول الآن أن النبي الذي هو غاية خلق الإنسان بقي أن يأتي؛ ذلك أن مَن كان مِن الممكن أن يُعتبر الغاية من خلق الكون هو نفسه جاء وأعلن أنني لست الغاية، بل هو مَن جاء قبلي وهو محمد رسول الله ﷺ.

باختصار، إن تصريحات الحواريين المذكورة آنفًا والمبنيّة على نبوءات المسيح عليه السلام تبيّن بوضوح أن النبي الذي كان "الغاية النهائية" لخلق الكون كان سيأتي ما بين بعثة المسيح الأولى والثانية، وهو سيدنا محمد ﷺ، ومن أجل ذلك قال الله تعالى لرسوله الكريم هنا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.. أي قُمْ متذكرًا الغاية التي خلق الله الخلائق لأجلها، وبلِّغْ الناس دعوتك، فقد جئتَ تحقيقًا لتلك الغاية، فأعلن باسمي بينهم وقُلْ: إني أقول لكم هذا بأمر الرب، ولكن ليس بأمر ربّ المسيحيين الذي هو بحاجة إلى ابن و لا بأمر رب اليهود الذي هو خاص بالشعب اليهودي، ولا بأمر رب المشركين الذي لا يقدر على خلق شيء، بل أعلن هذا بأمر الربّ ﴿الذي خَلَقَ﴾.. أي الذي خلق المخلوقات كلها لغاية معينة، ولكنها لم تكن قد تحققت بعد، وقد جئتُ محققًا لها.

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

عَلَقٍ: العَلَقُ: الدمُ عامة؛ وقيل الشديدُ الحمرةِ، وقيل الغليظُ، وقيل الجامد. والعَلَقُ: كلُّ ما عُلِّقَ؛ الطينُ الذي يعلق باليد؛ الخصومةُ والمحبةُ اللازمتان -ذلك لأنهما تعلقان بالقلب- والعَلَقُ جمعُ العَلَقَة، وهي القطعة من العَلَق للدم. (الأقرب)

لو اعتبرنا العَلَق هنا جمعًا فالحكمة في استعمالها جمعًا أن يُراد هنا الجنس الإنساني كله وليس فردًا واحدا من الناس، فيكون المراد من قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾: أننا خلقنا كل إنسان مِن علقة.

التفسير: اعلمْ أن من التعابير العربية: خُلِقَ فلان مِن كذا، ومعناه: أنّ هذا مِن طبعه (معالم التنـــزيل للبغوي، قوله تعالى: خُلق الإنسان مِن عَجَلٍ). وقد استعمل القرآن الكريم هذا التعبير في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضعفٍ﴾(الروم:٥٥)، وليس معناه أن الضعف مادةٌ خُلِقَ منها الإنسان، بل المراد أن الضعف من فطرته. ومثاله الآخر قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾(الأنبياء:٣٨)، وليس معنى ذلك أن العَجَل مادة يُخلَق منها الإنسان، بل المراد أن العَجلة والتسرع من فطرة الإنسان. كذلك فقول الله تعالى ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني أن الله تعالى قد جعل العَلَقَ من فطرة الإنسان. ومن معاني العلق المحبةُ والعداوةُ كما ذكرتُ آنفًا، وعليه فقوله تعالى ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني: أن الله تعالى قد خلق في الإنسان ثورة من المشاعر، فخلق فيه المحبة والكراهية أيضا، وإلى هاتين العاطفتين الفطريتين قد أشير هنا. فقال الله تعالى: لو تدبرتم الفطرة الإنسانية لانكشف عليكم أننا قد خلقنا في الإنسان مشاعر الحب والكراهية كلتيهما، وما دام الأمر كذلك فكان لزامًا تكميل مشاعره يوما ما. والواضح أن الإنسان لا يرضى بالتعبير عن مشاعره بشكل ناقص، بل يريد التعبير عن كل ما فيه من مشاعر وأحاسيس. إنه يشعر بحاجة إلى شفاء غليله الفطري ويظلّ توّاقًا لإظهار كل ما فيه من مشاعر وعواطف وأحاسيس فطرية بشكل كامل، ويحقق الغرض

الذي من أجله أودع صانع الفطرة فطرتَه شتى المشاعر والأحاسيس. يقول الله تعالى فكِّروا في الأمر آخذين في الحسبان هذه العاطفة الفطرية الطبعية في الإنسان، فما دام الله تعالى قد أنشأ في فطرته عند خلقه عاطفة المحبة وعاطفة الكراهية فكيف يقال أن الإنسان قد بلغ ذروة تطوره وارتقائه ما لم يتمّ تكميل هاتين العاطفتين الفطريتين، فيُخلَق ذلك الإنسان الذي يحب الله حبًّا لا حُبَّ بعده، ويكره الشيطان كرهًا لا كُرْهَ بعده؟ فباطلٌ القول أن الإنسان كان قد بلغ ذروة تطوُّره قبل بعثة محمد، وكيف يمكن ذلك ولم يكن الله تعالى قد أنزل بعد الشريعة التي تعلِّم الحب الكامل لله تعالى والكره الكامل للشيطان، ولم يكن قد بعث ذلك الإنسان الذي يعبّر عن هاتين العاطفتين تعبيرًا كاملاً، فيحب الله حبًّا لا مثيل له، ويكره الشيطان كرهًا لا نظير له، فلا يجوز لكم القول أن غاية خلق الكون قد تحققت في الماضي. ومن أجل ذلك يأمر الله تعالى رسوله قائلا: يا محمد، اقرأْ اسمَ ذلك الإله الذي خلق الإنسان مزوَّدًا بهاتين العاطفتين، والذي أودع فطرتَه الحبَّ الكامل والكراهية الكاملة، وأعلِنْ بين الناس: الآن سيتم من خلالي التعبيرُ عن الحب الكامل لله تعالى والكراهيةِ الكاملة تجاه الشيطان.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أن الله تعالى قد خلقه من دم متجمد متماسك، أي أنه تعالى قد طوّره من حالةٍ أدنى إلى كمال خلقه. فيبين الله تعالى بذلك أننا كما خلقنا الإنسان -كفرد- بهذا الشكل أي طورناه من حالة أدنى إلى أن اكتمل خَلْقُه، كذلك طوّرنا الخلائق -ككل- تدريجيًا، وهذا التدريج يتطلب أن تبلغ الخلائق -ككل- كمالَها والغايةَ من خلقها. وتعلمون أن المرأة الحامل لو أجهضت جنينها في الشهر الخامس أو السادس فلا يمكن أن تسمَّى ذاتَ ولد، وإنما تسمى ذات ولد إذا ولدت ابنها بعد اكتمال أيام الحمل، كذلك لو أن الخلائق لم تتطور ولم تبلغ في تطورها الذروة لكان مَثَلها مَثَل ابن أجهضتْه أُمُّه في الشهر الخامس أو السادس. لو انتهت الدنيا بموسى لقيل إن الإنسان الذي أراد الله أن يخلقه قد أُجهِضَ، ولو انتهت الدنيا بعيسى لقيل إن الإنسان الذي أراد الله خلقه قد أُجهض. لو لم يُخلق الإنسان الكامل الذي هو غاية خلق العالم، وفنيت الدنيا

قبله، لقيل إن الإنسان الذي أراد الله خلقه قد أُجهِض. فكما أن المرأة التي تجهض جنينها في الشهر الخامس أو السادس لا تُسمّى ذات ولد، كذلك لو لم يولد الإنسان الكامل في الدنيا لضاعت خطة خلق الإنسان تماما. وفي هذه الحالة يمكن أن تسمى الدنيا عاقرا، ولا نستطيع القول أن الغاية من خلقها قد تحققت. لا شك أن عيسى وموسى وإبراهيم ونوح قد بعثوا قبل ذلك، ولكن مثالهم كجنين الشهر الخامس أو السادس، أما محمد ﷺ فمثاله كوليد الشهر التاسع الذي يولد سويًا سليما. أما جنين الشهر الخامس فلا يمكن أن يسمى وليدا، لأنه لم يكتمل نموه، كما لا يمكن أن يسمى جنين الشهر السادس طفلا، لأنه غير مكتمل النمو، إنما يمكن تسمية الوليد طفلا إذا وُلد في الشهر التاسع، لأنه كامل النماء. كذلك لا يمكن أن يكتمل نماؤكم الروحاني بموسى وعيسى، وإنما يرتبط نماؤكم الروحاني بمحمد رسول الله، وبدونه لا يمكن أن تحقق الدنيا غايتها.

وأعود مرة أخرى إلى المعنى الأول وهو أن الله تعالى قد خلق الإنسان مزودا بعواطف المحبة والكراهية، وما لم يتمّ ظهور هذه المشاعر والعواطف بأكمل شكل فلا يتحقق الهدف من خلق الإنسان، لذلك كان ضروريا أن تنـــزل شريعة تعلِّم حب الله الكامل وكراهية الشيطان الكاملة، بتعبير آخر كان لا بد أن يظهر الإنسان الذي يكون كاملاً في وصاله بالله تعالى من ناحية وكاملاً في بُعده عن الشيطان. ودراسة القرآن الكريم تكشف أنه يعلن كلا الأمرين في حق النبي ﷺ، حيث قال الله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾(النجم:٩-١٠).. أي قد أحبَّ محمد ﷺ ربه بحيث ذهب إلى الله تعالى مسرعًا، فأتى الله إليه هرولةً، وهذا دليل ساطع على ما تيسر للرسول ﷺ من وصال كامل بربه.

ثم إن الرسول ﷺ كان بعيدا عن الشيطان كل البعد وكارهًا له كل الكراهية حتى قال ﷺ: "إن الله أعانني عليه فأسلمَ" (مسلم، كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان).. أي أن الله تعالى قد جعل شيطاني مسلمًا، بمعنى أنه لو جاءني لاصطبغ بصبغتي بدلاً من أن يغويني على الشرّ ولعَمِلَ الصالحات مثلي عوضًا عن أن يورطني في السيئة، ولو اصطدم بي صار مغلوبا وأصبح مسلما بتأثيري فيه. ولا شك أن هذا

دليل ساطع على ذلك الحب الشديد الذي كان يكنّه النبي ﷺ لله تعالى، فكل ما كان يقترب منه ينفكّ عن طبعه ويصطبغ بصبغته ﷺ التي صبّغه الله بها، وذلك كما يقال بالفارسية: إن كل ما ذهب في منجم الملح صار ملحا. لو درستم تاريخ العالم فلن تجدوا فيه أحدًا غيرَ النبي ﷺ ادعى أنه قد تيسر له من الوصال الكامل بالله تعالى حتى تفانى فيه تعالى، وقد بلغ من كراهيته للشيطان بحيث أصبح من المستحيل أن يتغلب عليه الشيطان بأي شكل، بل لو جاءه لصار مغلوبا، ولم يستطع أن يورطه في السيئات. الواقع أن محمدا رسول الله ﷺ هو النبي الوحيد الذي قد أثبت للعالم بعَمله أنه قد بلغ ذروة الوصال الإلهي، وأنّ القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي أكمل تعاليم الوصال الإلهي بحيث إن كل لفظ وحرف منه يفيض حبًا وعشقا لله تعالى. الحق أننا حين نقرأ مؤلفاتِ أَلَدِّ أعداءِ الإسلام من المسيحيين نجدهم لا يملكون إلا الاعتراف بأنه لا مثيلَ للقرآن الكريم بين الصحف كلها في التركيز والحث على حب الله تعالى. اقرأْ أية صفحة من القرآن الكريم تجده يذكر الله تعالى فيها مرة بعد أخرى ويوجِّهُك إلى ذات البارئ ﷻ عند كل خطوة. وهذا الأمر ليس خاصا بسورة معينة أو بجزء معيّن من القرآن، بل لن تجد في المصحف من باء البسملة إلى سين الناس أيةَ صفحة إلا وهي تذكر اسم الله تعالى مرارًا، وتحثّك على حبه تعالى مرة بعد أخرى. أما الأسفار الأخرى فتقرأ فيها مرةً أن فلانا صعد الجبل فقدّم له الناس سمكًا مشويًا وقطعة من الشهد (لوقا ٢٤: ٤١-٤٢)، وتارةً أخرى أن بعض الناس ركبهم الجن وجاءوا إلى يسوع، فأخرج الجن وأدخلهم في قطيع من الخنازير، فغرقتْ في الماء (متى ٨: ٢٨-٣٣). فتجد فيها أمورا تُضحِكك، ولكنك لن تجد في المصحف صفحة واحدة هي خالية من اسم الله تعالى. ستجد صفحات وصفحات من التوراة والإنجيل وغيرهما من أسفار الكتاب المقدس خاليةً من ذكر الله تعالى كلية، لكن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي ليس فيه أي صفحة خالية من ذكر الله ﷻ.

هذا، ويُمكن أن يكون قول الله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ موضوعًا مستقلا، كما يمكن أن يكون بدلاً من قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾. إذا اعتبرناه بدلاً

من قوله تعالى ﴿الذي خَلَقَ﴾ فمعناه ما ذكرته آنفا، أي أن الخلق هنا لا يشير إلى الخلق العام بل إلى خلق الإنسان. أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ موضوعًا مستقلا فيكون المعنى: اقرأ باسم ربك الذي هو خالق الأشياء ولا سيما باسم ذلك الرب الذي خلق الإنسان، وسيكون مفهوم هذه الآية أن كل أنواع الخلق تابعٌ لخلق الإنسان.. أي أن الخلق الإنساني هو المقصود الحقيقي من خلق الأشياء، ثم إن خلق محمد ﷺ هو الهدف من الخلق الإنساني. فيا محمد، ابدأْ مهمتك مذكِّرًا الله تعالى هذا الهدف.

وهنا ينشأ سؤال: ما دام الله تعالى هو الذي قد رسم هذه الخطة، وهو الذي جعل الغاية من خلق العالم أن يخلق محمدا ﷺ، فلماذا قال له ابدأْ هذا العمل باسم ربك الذي خلق، مذكّرًا إياه هذه الخطةَ؟! هل نسي الله تعالى خطته هذه حتى يذكّره محمد بها؟

لقد ذكرتُ أحد الأجوبة على ذلك من قبل وقلت إن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يعني ابدأْ هذه المهمة، يا محمد، بصفتك رسولاً منا، فإن تأييدنا ونصرتنا حليفك. فرغم أن الرسول ﷺ هو الغاية من خلق العالمين وهو القمة للارتقاء الروحاني، إلا أن إضافة هذه الكلمات لم تكن بدون سبب، بل فيها حكمة بالغة وهي أن قوله تعالى ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ كان بمثابة الإعلان عن رسالة النبي ﷺ، حيث أمره الله تعالى: بلِّغْ الناس هذه الرسالة باسمنا، فمن آمن بك نعم برضانا، ومن كفر بك حلّ به عذابنا.

بيد أن هناك جوابًا آخر، وهو أن للدعاء أساليب وآداب عديدة، منها أن على المرء أن يستثير رحمة الله تعالى بذكر الصفة الإلهية التي هي ذات صلة بما يطلبه، فهذا أدعى للبركة والاستجابة. وإنني ذو خبرة بأن الطريق السليم للدعاء أن يدعو الداعي بذكر تلك الصفة الإلهية التي لها صلة بحاجته. فمثلا من ليس عنده أولاد إذا دعا الله تعالى: يا خالق، ارزقني ابنًا، فلا شك أنه طريق سليم للدعاء، ولكنه لو دعاه: يا جبّار، ارزقْني ولدا، يا قهّار أَعْطِني ولدا، يا مميتُ أعطِني ولدا، فمن الممكن أن ينظر الله إلى تضرعه وابتهاله برحمة ويهبه ولدًا، ولكن كل من يسمع هذا

الداعي يقول إنه يدعو بطريقة خاطئة جدا، إذ يسأله الأولاد مستنجدًا بصفته التي لا تتعلق بالخلق، بل تتعلق بالموت والقهر والغضب. أو مثلاً إذا دعا المرء قائلا: يا ربي المميت، أَهلِكْ عدوي الذي قد ضيّق عليّ الحياة واحفظْني من شره، فلا شك أن دعاءه صحيح جدًّا، ولكنه لو دعا قائلا: يا ربيَ المحيي ويا خالقي أَهلِكْ عدوي، فلا شك أن دعاءه يدل على جهله. باختصار إن دعاء المرء متوسلا بصفة الله التي توافق حاجته يجاب بسرعة، ومن أجل ذلك أضاف الله تعالى هنا قوله ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وكأنه تعالى يقول: يا محمد، لو دعوت قائلاً: يا رب الذي جعلتَ بعثتي غايةَ خلق الكون منذ خلْقه، أتوسل إليك بمشيئتك هذه أن تكتب لي النجاح، لأُجيبَ دعاؤك بسرعة وحقّقتَ أهدافك في وقت قليل.

والحكمة الثانية في إضافة قوله ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هي أن دعاء المرء مستنجدًا بصفة الله التي توافق حاجته يزيده أملاً ويملؤه يقينًا بنجاحه. فمثلا لو دعا قائلا: رب، قد قلتَ إني سأجمع العالم كله على يد واحدة لأنك خلقتَ كل الكون لهذا الهدف، فأتوسل إليك الآن بصفتك هذه التي تسببت في خلق الكون كله أن اجْمَع العالم على يدي، وحَقِّق الهدف من خلقه، لنـــزل عليه فضل الله تعالى بقوة، كما ازداد أملاً ويقينًا بأن النجاح حليفه وأن مهمته ستتحقق حتمًا حتى ولو حصل تقصير منه في جهوده، لأن هذه هي مشيئة الله تعالى.

والحكمة الثالثة في إضافة قوله ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هي أن النبي ﷺ إذا دعا اللهَ تعالى واضعًا في الاعتبار تلك السلسلة الطويلة من الأنبياء الذين ظلوا يأتون منذ زمن طويل، فلا بد أن يزداد إيمانًا كما ازداد حماسًا للعمل، فعندما يقول: رب قد أرسلتَ آدم للنهوض بالناس، ثم بعثتَ نوحًا ليزدادوا تقدمًا، ثم بعثتَ موسى وعيسى ثم بعثتَني أنا للمزيد من ترقياتهم، فاكتبْ الغلبة للإسلام، فلا بد أن يزداد ﷺ إيمانًا بغلبة الإسلام ونجاحه. وهكذا قد جعل الله هذا الأمر نصب عين النبي ﷺ بحيث لا يمكن أن يتصور أن الله تعالى سيهمل هذه الخطة ولا يحقق الغاية التي وضع أساسها منذ زمن آدم.

باختصار، بهذا الأسلوب قد زاد الله تعالى قلب النبي ﷺ يقينا، كما زاده إيمانًا وحماسا للعمل، واستثارةً لفضل الله بالإشارة إلى خطته المنشودة. فثبت أن قوله تعالى ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ليس بدون فائدة، بل فيه حِكم وفوائد عظيمة.

ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الأكرم: اسمُ تفضيل مِن كرُم يكرُم. والكريم: قد يُطلق على الجواد الكثيرِ النفعِ، وقد يُطلَق مِن كل شيء على أحسنه. (الأقرب)

وهذا يعني أن الكريم يُطلَق على ما بلغ الذروة من الأشياء. فما دام الكريم هو الأحسن، فالأكرم يعني مَن هو أحسن الأحسن. فقوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ يعني أنه أحسن الأحسنين.

التفسير: بقوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ قد نبه الله تعالى رسوله إلى أن الناس قد هضموا حق الله، فبدلاً من أن يعتبروا الله هو الأكرم، اعتبروا أصنامهم الحقيرة الأكرم، فمنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يعبد عيسى، ومنهم من يحني رأسه أمام شيء آخر؛ فقُمْ، يا محمد، واستردّ منهم حق الله له. ما قدر الناس اللهَ حقَّ قدره، فوزَّعوا حق الألوهية على الأصنام وعلى البشر، فمن واجبك الآن أن تُثبت للناس أن الله هو الأكرم، وتأتيَ بالإنسانية الضالة التائهة إلى العتبة الإلهية ثانية، وتجعل العالم يقرّ أن الله هو الأكرم.

كما أن قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ تذكير للرسول ﷺ بألا يعتبر نفسه ضعيفا، لأن الله الذي أقامه هو الأكرم وهو أحسن الأحسنين، فيجب أن يوقن بسموّ تعاليمه مطمئنًا بأن الله تعالى يريد التجلّي عليه بصفته الأكرم. لا شك أنه تعالى قد تجلى على موسى وداود وسليمان وعيسى وغيرهم من الأنبياء، لكنه لم يتجلَّ عليهم كالرب الأكرم، غير أنه تعالى يريد الآن أن يتجلى كالرب الأكرم من

خلالك يا محمد، وستتجلى صفاته بواسطتك تجليًا لم يسبق له مثيل، فلا داعي للقلق أو القنوط.

ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾

التفسير: لا تعني هذه الآية أن الله تعالى علّم الإنسان بالقلم حقيقةً، فهذا خلاف الواقع، فمتى أخذ الله القلم وعلّم أحدًا من العباد ألف باء؟

كما ليس المراد من هذه الآية أن ما يعلِّمه الناس غيرهم بالقلم هو كله مما علّمهم الله تعالى، ذلك لأنهم يعلِّمون الآخرين أيضًا الكذب والغش والخداع وما ينافي الأخلاق والروحانية، فهناك مَن يعلّمونهم شعرًا فاسدًا وقصصَ ألف ليلة وليلة، ومَن يكتبون اللغو من الكلام ويشيعونه بين الناس. كما يوجد بين أهل القلم مَن ينكر وجود البارئ تعالى وينكر ضرورة الدين، أو لا قيمة عنده للأخلاق والقيم. باختصار، يوجد في الدنيا منكِرون لكل تعليم حقّ، ويوجد فيما يعلّمونه بالقلم أَلْفُ خداع وافتراء، لذا فلا يصحّ تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أن ما يعلِّم العبادُ بالقلم هو كله مما علّمهم الله ﷻ.

علمًا أن قوله تعالى ﴿عَلَّمَ﴾ فعلٌ ماضٍ، ولكنه بمعنى المضارع، فمن قواعد العربية استعمال الماضي بمعنى الاستقبال. وقد كثرت الأمثلة على ذلك في القرآن الكريم وفي إلهامات الناس. والحكمة في استعمال الماضي بمعنى الاستقبال هي أن الماضي أكثرُ يقينًا وقطعيةً، فعندما يبدأ المرء بعمل فلا نستطيع الجزم أنه سيتمّه؛ فمثلا إذا كان زيد يقرأ فلا نستطيع القول أنه سيستمر في قراءته أم يموت، ولكنه إذا فرغ من القراءة فلا يمكن تبديل ما فعل لأن الحدث صار ماضيًا، كذلك فإذا أراد الله تعالى ذِكْرَ أمرٍ في وحيه وإلهامه على سبيل القطعية واليقين استعمل صيغة الماضي، وكأنه يقول: اعتبِروا هذا الشيء كأنه قد وقع؛ فوقوعه قطعي ويقيني كقطعية الماضي. وهنا أيضًا استعمل الله صيغة الماضي فقال ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، لكن المعنى أن الله تعالى سيعلِّم الناس معارف القرآن الكريم قطعًا ويقينا، فهو أمر لا

تبديل فيه ولا تغيير. بمعنى أن القرآن الكريم سيُكتب وبالكتابة ينتشر في العالم وسيستعمل الناس أقلامهم تأييدًا له.

انظرْ كيف تحققت هذه النبوءة القرآنية بجلاء ووضوح؟ فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي حُفِظَ بالقلم، إذ ليس هناك كتاب ولا سِفر صار محفوظا بالقلم فور نزوله. فلم يدوَّن كتاب موسى ولا صحف إبراهيم فور نزولها، ولم يُكتب الفيدا الهندوسي حين نزوله على الريشيين، ولم يدوَّن الزندفستا فور نزوله على زرادشت، ولم يُكتَب الإنجيل حين نزل على المسيح وحيًا غضًّا. أما القرآن الكريم فهو السفر الوحيد الذي كُتب منذ بداية نزوله أولاً بأول، ولا يزال محفوظا حتى اليوم بكلماته التي نزل بها على رسول الله ﷺ.

وهذه الحقيقة تبلغ من اليقين والقطعية بحيث لم يملك أعداء الإسلام إلا الاعتراف بها، فقالوا ليس ثمة مِن كتاب سوى القرآن يمكن القول عنه إنه محفوظ حتى اليوم من أوله إلى آخره بكل كلماته وحروفه وحركاته من ضم وفتح وكسر، كما عُرض على العالم أول مرة. فإن وليام موير ونولدكه وسبرنجر هم من مشاهير المستشرقين الغربيين، وقد قضوا كل حياتهم في عداء الإسلام، ولكنهم أيضًا لم يجدوا مناصًا من الاعتراف أن القرآن الكريم لم يتعرض لأي تغيير وتحريف، بل إنه لا يزال محفوظًا من أوله إلى آخره من أي تبديل أو تحريف بيد البشر.

(-The Life of Mahomet: by Sir William Muir p. 561-563
-The Quran, its composition and teachings p:40
- A Comprehensive Commentary on The Quran, by Wherry v.1 p. 109
-Koran :(الموسوعة البريطانية، تحت

ومن معاني قوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أن جميع العلوم والمعارف سوف تنتشر في العالم من خلال القرآن مستقبلا. وبالفعل فإن جميع العلوم التي نراها اليوم في الدنيا إنما وُجدت بفضل القرآن الكريم.

لقد نزل القرآن بين العرب الذين كانوا جهالاً لا يعرفون ما هو علم التاريخ وما الصرف والنحو وما الفقه وأصوله، لكنهم لما نالوا شرف الإيمان بالقرآن لم يجدوا بدًا من التوجه إلى كل هذه العلوم من أجل خدمة القرآن الكريم. فمثلا لما قرأوا في

القرآن أسماء الأنبياء السابقين وأحداثهم توجهوا إلى فحص أحداث الماضي إثباتًا لصدق ما يقوله القرآن، وهكذا وُجد علم التاريخ. لا شك أن القرآن نزل بلسان عربي، ولم يكن صعبًا على العرب أن يفهموه ويتلوه تلاوة سليمة، لكن عندما انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية بدأ العرب يخطئون في تشكيل كلمات القرآن نتيجة اختلاطهم بالشعوب الأخرى، فمسَّت الحاجة إلى وضع قواعد اللغة العربية، وهكذا وُجد علم الصرف والنحو. يقول المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي أتى إلى بيته ذات يوم، فوجد ابنته تقرأ قول الله تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُه﴾(التوبة:٣)، فقرأتْ خطـــأً (وَرَسُولِهِ). فالآية تعني: أن الله ورسوله كلاهما بريئان من المشركين، ولكن قراءتها الخاطئة (ورسولِه) تعني أن الله بريء من المشركين ومِن رسوله أيضا، فالمعنى انقلب كليًّا. فأصيب أبو الأسود بالقلق وذهب إلى سيدنا عليّ ﷺ وقال له: لقد جاء العجم إلى بلادنا بكثرة، وقد تزوجت بناتنا منهم أيضا، ففسدت لغتنا نتيجة هذا الاختلاط، فقد رجعتُ حالا من البيت لأني وجدت ابنتي قد أخطأت في قراءة قول الله تعالى ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُه﴾، ولو كثرت الأخطاء في القرآن هكذا قامت القيامة، فدرءًا لهذه الفتنة علينا وضع قواعد اللغة العربية لكي لا يرتكب الناس أخطاء كهذه. وكان عليٌّ ﷺ قد خرج حينها على حصانه، فقال له: نعم، هذا لا بد منه، ثم أملى على أبي الأسود بعض القواعد العربية وهو على متن الحصان، وقال: انحُ نحوَه. ومِن هنا وُضع أساس علم النحو والصرف لكي يقرأ الناس القرآن الكريم قراءة صحيحة.

ثم لما دخل العجم في الإسلام بكثرة فكّر العرب أن هؤلاء لن يفهموا القرآن الكريم بدون مساعدة منهم، فوضعوا لهم القواميس خدمة للقرآن. ثم بعد ذلك اخترعوا علم الفقه وأصوله لشرح القرآن الكريم. ولم يوجد علم المعاني وعلم البيان إلا ببركة القرآن الكريم.

ثم وُجد علم البلاغة لفهم تعابير القرآن واستعاراته؛ إذ بدون ذلك لا يفهم المرء هذه التعابير القرآنية. وهناك طريفة في كتب الأدب العربي حول هذا العلم: يقال أن شخصًا اعترض في مجلس بأن في القرآن تعابير هي خلاف العقل، حيث ورد فيه

مثلاً: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ (الكهف:٧٨)، ومتى يريد الجدار أن ينقضّ! هذا القول يدلّ على جهل صاحبه. وكان في المجلس أحد علماء المسلمين، فاحتار في أمره ولم يستطع الرد على المعترض. وفيما هم في ذلك إذ دخل على المعترض غلامه الذي كان من قبيلة عريقة فقال له: اذهبْ إلى فلان من أصدقائي فهو مريض وأخبرْني عن حاله. فذهب ورجع بعد قليل وقال: إنه يريد أن يموت. فسُقِطَ في يد المعترض إذ وجد مِن غلامه الردَّ على اعتراضه الذي أثاره ضد القرآن الكريم، إذ قال: متى يريد الجدار أن ينقضّ، فجاءه الغلام وقال له: صديقك يريد أن يموت، مع أن الإنسان لا يريد أن يموت، إنما هي استعارة تعني أنه على وشك الموت. كذلك فإن الآية تعني أن ذلك الجدار كان على وشك السقوط، وليس أن الجدار عاقل يريد أن ينقضّ. (فقهُ اللغة للثعالبي، باب في إضافة الفعل إلى ما ليس بفاعل على الحقيقة)

وهذا هو حال علم الاقتصاد حيث أوجده الله تعالى لتوضيح نظام الاقتصاد القرآني.

باختصار، إن جميع هذه العلوم التي ظهرت في العالم واحدا بعد الآخر مِن صرف ونحو وتاريخ وأدب وكلام وفقه وما إلى ذلك، إنما وُجدت ببركة القرآن الكريم ولتأييده وخدمته، ولولاها لم تنكشف على الناس حقيقة القرآن وعظمته كما ينبغي. كان العرب أمة جاهلة فلولا القرآن لم يتوجهوا إلى هذه العلوم، إنما عُنوا بها لأنهم آمنوا بالقرآن الكريم، ثم لكي ينشروا تعاليمه بين الناس اخترعوا هذه العلوم أو توجهوا إليها. أما باقي العلوم فإنها أيضًا قد أُخِذت من القرآن الكريم، لأن العرب اخترعوها أو أحيوها، فأخذ منهم الباقون. لقد حاولت أوروبا طويلاً إخفاء منةِ المسلمين هذه، لكن قد وُجد اليوم في أوروبا نفسها قوم أعلنوا في كتبهم بكل قوة أن مِن العار أن نتعلم هذه العلوم من المسلمين ثم لا نذكرهم في كتبنا مطلقًا، ونُوهِمُ العالَمَ أننا مخترعوها؛ إنه لأسوأُ مثال لنكران الجميل. إن المسلمين هم من علّمونا هذه العلوم، ولكنا لا نذكر أسماءهم، وننسبها إلينا كلها.

وعندي كتب عديدة من هذا القبيل حيث يثير مؤلفوها هذا النقاش بشدة، مما يدل على أن قلوبهم تثور غيظًا ضد قومهم بسبب تصرفهم هذا. فإنهم حين يرون منن المسلمين عليهم من ناحية، ومن ناحية أخرى يرون مماحكة قومهم الذين أخذوا كل هذه العلوم منهم ثم لا يذكرون اسمهم، فتستعرّ قلوبهم غيظًا، فيقولون: هذا نكران للجميل. لقد أخذنا كل هذه الأشياء من المسلمين ومع ذلك لا نعترف بعلمهم وفضلهم وإحسانهم ولو تلميحا.

لقد طالعت قبل فترة كتابًا حول الموسيقى – علمًا أن المسلمين هم الذين اخترعوا هذا العلم، لأن الله تعالى أمرهم أن يرتّلوا القرآن ترتيلا، فتوجهوا إلى الموسيقى التي تطورت وصارت علمًا عظيما بحدّ ذاتها– وتدعي أوروبا أنها مخترعة الموسيقى، لكن مؤلف الكتاب المشار إليه يقول بكل قوة وشدة إن هذا الادعاء الأوروبي محض خداع وافتراء، والحق أن أوروبا تعلّمت الموسيقى من المسلمين. ثم يقدم المؤلف دليله قائلا: يوجد في مكتبة المتحف البريطاني في خزانة كذا وبرقم كذا كتابٌ كذا يحتوي على رسالةٍ كتبها مسيحي لفلان من القسيسين قال فيها: لقد كنت ذهبتُ إلى إسبانيا، وأذهلني تطوُّرُ المسلمين في الموسيقى. إن موسيقاهم رائعة للغاية بحيث لا مقارنة بينها وبين الموسيقى عندنا. ولو سمحتَ لي ولم تر في ذلك مخالفة للدين النصراني فإني أريد أن أقوم بترجمة موسيقى المسلمين لأهل أوروبا لكي تروج هذه الموسيقى الرائعة في كنائسنا، ولكي يزداد الناس حبًّا للمسيحية. ثم يذكر المؤلف أن القسيس أجاب على رسالة ذلك المسيحي برسالة لا تزال محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني حيث قال فيها: لا حرج أن تترجم الموسيقى الإسبانية، ولكن لا تذكر في الترجمة اسم المسلمين، لأنك إذا ذكرتَ المصدر وقلت إن هذه الموسيقى مأخوذة من المسلمين، فهذا يرسي عظمتهم عندنا. فانقُلْ تلك الموسيقى لنا، لكن دون ذكر اسم المسلمين، لكي يظن الناس أنك صاحب هذا العلم.

إذن، فقد حاولتْ أوروبا إخفاء هذا الأمر طويلاً، أعني أخذهم جميع هذه العلوم من المسلمين. ولكن لم يعد الأمر خفيا، إذ وجد اليوم بين المسيحيين أناس يتحدثون في كتبهم علنًا وبكل قوة عن نكران قومهم لجميل المسلمين.

وكذلك فإن فنّ العمارة والفسيفساء ونسج السجّاد.. كلها علوم قد أخذها أوروبا من المسلمين، وقد رأيتُ بنفسي الدليل على ذلك في بريطانيا، وهو حصنٌ مَلكي قديم في مدينة برايتون. لم يجد المسيحيون في أوروبا كلها أحدًا لزخرفة جدرانها، فدعوا الفنانين المسلمين، فذهبوا وزخرفوا الجدران بكتابة (لا إله إلا الله محمد رسول الله). وهذا دليل أن شرف اختراع هذا الفن أيضًا من نصيب المسلمين.

باختصار، لم يكن عند أوروبا أي شيء، بل كل ما عندهم إنما تعلّموه من مسلمي إسبانيا، وقد تعلمت إسبانيا من أهل الشام، وما تعلمه أهل الشام إنما تعلموه من القرآن.

فالحق أن علوم الدنيا كلها قد ظهرت من القرآن الكريم، فكل الأقلام التي ستعمل بعده إلى يوم القيامة إنما ستعمل لخدمته وترويج علومه. إن جميع المؤلفات التي تصدر اليوم من أوروبا كلها، تصديق لقوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وتحقيق للنبوءة الإلهية أنه سينشر القرآن الكريم بالقلم.

كان العرب جاهلين بكل أنواع العلوم، لكنهم بعد إيمانهم بالقرآن الكريم صاروا أساتذة العالم كله. إن الفلسفة التي تعتز بها أوروبا اليوم إنما اخترعها المسلمون. المشهور بين الناس أن الفلسفة من اختراع أوروبا، لكن أحد الفلاسفة الأوروبيين قد دحض هذا الزعم تماما حيث كتب أننا نحن الأوروبيين قد أخذنا الفلسفة من أوّلها إلى آخرها عن الأشعري، فإذا وجدتم شيئا جيدا في فلسفتنا، فيعود فضله إلى الأشعري لا إلينا.

لا شك أن العلوم تتطور دائما، وكل جيل يسعى لرفع مستواه العلمي، إلا أنه لا يسع أحدًا إنكار أهمية البذرة. فالشجرة مهما كبرت وازدهرت وتضخمت، إلا أنه لا يمكننا إنكار أهمية البذرة التي نبتت منها؛ كذلك فمهما تطورت هذه العلوم فإن فخر اختراعها سيبقى عائدا للمسلمين، وستظل رؤوسهم خاضعة أمام القرآن الكريم، لأنه الكتاب الذي أعلن: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.. أي قد آن الأوان لتعليم الدنيا العلوم بالقلم. الحقيقة أن القرآن الكريم هو الذي علّم الدنيا العلوم كلها،

ولولاه لكانت الدنيا مشهدا للظلام والجهل والوحشية. إنه لمن فضل القرآن الكريم أنه أخرج العالم من الظلمات إلى ميدان العلم والمعرفة.

عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٦﴾

التفسير: لقد جاءت هذه الآية توضيحًا ودعمًا لموضوع خلق الإنسان المذكور في الآية السابقة، حيث أخبر الله تعالى أننا سنعلّم الإنسان بواسطة محمد ما لم يعلّمه من قبل. والحق أن القرآن الكريم زاخرٌ بالعلوم والقضايا التي لم تقدِّم الفلسفة ولا المسيحية ولا اليهودية حلولاً لها قبل الإسلام. فمثلاً قد قدّم الإسلام عن التوحيد تعليمًا رائعا جامعا كاملا لم تقدم أية ديانة مثله قط. وقد ألقى القرآن الكريم على موضوع النبوة ضوءاً مفصَّلا لا نظير له في أي دين آخر. لقد نزل القرآن الكريم في أمة لم يأتها نبي منذ فترة طويلة، ولم تكن تعاليم إبراهيم عليه السلام محفوظة عندهم، بل كانوا جاهلين تماما بموضوع النبوة وتفاصيلها، ومع ذلك فقد استفاض الإسلام في موضوع النبوة بما لا نجد نظيرا له عند اليهودية ولا المسيحية. لقد بُعث عيسى عليه السلام في أمة جاء فيها مئات الأنبياء، وقد ألقى كل واحد منهم الضوء على موضوع النبوة بأسلوبه، ومع ذلك ليس بوسع النصارى اليوم أن يقدّموا لنا تعريف النبي من الإنجيل.

عندما كان خلافنا مع غير المبايعين♦ حول النبوة على أشدّه بعثتُ رسائل لكبار القسس وعلماء السيخ وباندات الهندوس وفقهاء اليهود، وقلت لهم أن يذكروا لي تعريف النبي في دينهم، فلم يردّ بعضهم على رسالتي، وبعضهم اعترف صراحة أن

♦ غير المبايعين: هم فئة أرادت إلغاء الخلافة في الجماعة الإسلامية الأحمدية، وانشقوا عنها تاركين مركزها قاديان ومتخذين مدينة لاهور مركزًا لهم، واشتهروا في أدبياتنا باسم الجماعة اللاهورية أو اللاهوريين نسبة إلى مركزهم، والبيغاميين أيضًا نسبة إلى جريدتهم "بيغام صلح"، وغير المبايعين لرفضهم بيعة الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام. وكان أول رئيس لهم المولوي محمد علي. (المترجم)

دينه صامت في هذا الموضوع كل الصمت. وقد كتب لي أحد كبار القسس أننا لا نجد في كتبنا أي تفصيل حول النبوة. أما ديننا فقد تناول هذه القضايا بتفصيل كبير، وبيّن مَن هو النبي، ومتى يُبعث، وكيف يُعامَل، وما هي أدلّة صدقه. فقد تناول الإسلام هذه القضية وكثيرًا غيرها بكل وضوح، لذلك قال الله تعالى هنا ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.. أي أن الله تعالى سيقوم بتكميل العلوم كلها بالقرآن الكريم. لا شك أن عقيدة التوحيد كانت موجودة في العالم، لكن تكميلها لم يكن قد تمّ بعد، ولا جرم أن الناس كانوا يؤمنون بالملائكة والكتب والرسل، لكن لم تكن عندهم معرفة تامة بحقيقة الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله، فلو سُئلوا ما معنى كون الله أحدا لم يستطيعوا الجواب، أما القرآن الكريم فسوف يعلّمهم معنى التوحيد ويحذرهم من الأمور التي تدفعهم إلى الشرك والوثنية. أو لو سألنا الكتابَ المقدس: ما هي الملائكة، ولماذا خُلقتْ، وما هي أعمالها، وماذا يحدث بدونها، لم نجد عنده الجواب على هذه الأسئلة مطلقًا، وإنما يكتفي بقوله: قد خلق الله الملائكة، وهم يأتون بوحي الله إلى الأنبياء، ولكنه لن يخبر ما هي حقيقة الملائكة وما هي منافع الإيمان بها. أما القرآن فلا يخبرنا أن الملائكة مخلوقات فحسب، بل يخبر أيضا لماذا خُلقت، وما هي أعمالها، وكيف يمكن للمرء أن يزداد صلة بها، وما هي الأمور التي تُضعِف علاقته بها. أو لو سألنا مثلا عن كيفية حالة الإنسان بعد الموت، فلن تُلقي أي ديانة أي ضوء على ذلك سوى الإسلام، فلا اليهودية تبين هذه الأمور ولا المسيحية ولا غيرهما من الأديان. إنما الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتناول هذه القضية ببحث مستفيض يطمئن به قلب الإنسان وتشعر روحه بالسكينة.

كذلك لو سألنا ما هو تعريف الأخلاق، وما هي الأخلاق الفاضلة، وما الذي يميز الأخلاق الحسنة من السيئة، وعلى أي أساس تسمى بعضها حسنة وبعضها سيئة، وما الفارق بين الأخلاق والروحانية، فلن نجد الجواب على هذه الأسئلة كلها إلا في القرآن الكريم، وأن مطالعة أسفار الأديان الأخرى بحثًا عن الإجابة عليها لن تجلب لقلب الإنسان الطمأنينة. وإلى هذه الحقيقة قد أشار الله تعالى بهذه

الكلمات الجامعة الوجيزة ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.. أي أن الله تعالى سيعلِّم العالَمَ من خلال القرآن والإسلام علومًا ومعارف لم تخطر ببال أحد من قبل.

وقد قدم الله تعالى دليلاً عَمليًا على هذه الدعوى في هذا العصر أيضًا، وذلك في مؤتمر الأديان العظمى بلاهور في زمن المسيح الموعود عليه السلام.

لقد وجّه المشرفون على هذا المؤتمر خمسة أسئلة هامة إلى ممثلي الأديان المختلفة ليجيبوا عليها على ضوء تعاليم أديانهم. فقام المسيح الموعود عليه السلام بإعداد مقال ليُقرأ في هذا المؤتمر، وقد نُشر فيما بعد بعنوان: فلسفة تعاليم الإسلام. لقد أجاب فيه على هذه الأسئلة الخمسة على ضوء القرآن الكريم إجابات مستفيضة، حتى إذا قُرئ مقاله عليه السلام على مسامع الناس في المؤتمر أجمع الكل على أنّ مقاله كان أفضل المقالات والمحاضرات، واعترفت الجرائد أيضًا أن مقال ميرزا غلام أحمد القادياني كان غالبا على جميع المقالات التي قرئت في هذا المؤتمر. وبتعبير آخر كان مقال القرآن الكريم هو الغالب، لأن كل ما كتبه المسيح الموعود عليه السلام إنما كتبه مستشهدًا بآيات القرآن الكريم وعلى ضوئها، و لم يُضِفْ من عنده شيئا. مما كان دليلاً عَمليًّا على عجز الدنيا عن الإتيان بمثل علوم القرآن الكريم. علمًا أن المسيح الموعود عليه السلام كان قد فرض على نفسه شرطًا إضافيًا من عنده أنه لن يذكر في مقاله شيئًا إلا على ضوء القرآن الكريم، في حين كان ممثلو الأديان الأخرى مخيَّرين في أن يدعموا كلمتهم بالأدلة العقلية والفلسفية إثباتًا لغلبة ديانتهم، ومع ذلك فشلوا في هذه المبارزة، بينما بيّن عليه السلام من علوم القرآن الكريم ومعارفه ما لم يستطع ممثل أي دين أن يقدم عُشْرَ ما قدّمه عليه السلام رغم فرض هذا الشرط الزائد عليه.

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٧﴾

التفسير: لقد سبق أن بينتُ أن كلمة ﴿كلا﴾ تأتي إبطالاً لقول القائل الذي يرفض أمرًا، أو المفهومَ الناتج منه. فإننا حين نستخدم "كلا" فكأنما نقول للمخاطَب: ليس الأمر كما ترى. وفي لغتنا (الأردية) أيضا حين يريدون رفض

شيء يقولون للمخاطب: لا، لا. فالواقع أن ﴿كلا﴾ هي بمثابة لا، لا.. أي أن ما تفهمه ليس صحيحا، بل الحقيقة عكس ما ترى.

والسؤال الآن: ما هو الأمر المذكور هنا والذي اعترض عليه الخصم فقيل له: ﴿كلا﴾؟

والجواب أن الله تعالى قد أعلن في الآية السابقة ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.. أي أنه تعالى سوف يعلِّمه ما لم يعلمه حتى الآن. بمعنى أن الله تعالى سوف يرشد الناس بهذا الوحي وينـــزل من عنده منهجًا وتعليمًا يرقّيهم أسمى درجات الروحانية، وهنا يعترض الخصم قائلا: إن الإنسان ليس بحاجة إلى الوحي من أجل هدايته، بل يستطيع التقدم والرقيّ معتمدا على عقله. وهذا السؤال يثار في هذا العصر من المثقفين بوجه خاص، فإذا قيل لهم لقد هيأ الله تعالى أسباب هدايتكم قالوا: ما الداعي أن يتدخل الله في أمورنا؟ فنحن قادرون على أن ندير أمورنا بعقلنا، ونتخذ أفضل التدابير لرقينا؛ ففنَّد الله هذه الفكرة بقوله ﴿كَلاَّ﴾، وأخبر أنَّ مِن الخطأ قطعًا القول أن الإنسان قادر على أن يقترح لنفسه طريق الهدى والنجاة، ولا حاجة به لنصرة الله. الحق أنه لولا نزول الهداية من الله تعالى لم تقدر الدنيا على التقدم نحو الرقيّ خطوة واحدة. إن تقدُّم الدنيا منوطٌ بوحي الله تعالى وكلامه، ولم يقدر الإنسان بدون الهدي السماوي على التقدُّم الروحاني في الماضي ولن يقدر في المستقبل.

وبعد هذا التفنيد أخبرنا الله تعالى ما هو أساس هذا التفكير، ولماذا تتولد هذه الأفكار في قلب الإنسان، فقال: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾.. أي أن قول الناس إنهم ليسوا بحاجة إلى نصرة الله بل إنهم سيهيئون أسباب هدايتهم بأنفسهم، إنما سببه الطغيان والتمرد. يقال طغى فلان: أي جاوز القدر والحدّ، وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ يعني أن الإنسان يتجاوز قدره ويتمرّد. لا شك أننا زوّدناه بشتى القوى والقدرات، لكن هذا لا يعني أنه قادر على أن يهيئ لنفسه أسباب الهدى من دون نصرتنا وتوفيقنا.

لقد صرح الله تعالى في أماكن عديدة في القرآن أنه قد زود الإنسان بقدرات عظيمة، وقد ورد هذا الموضوع في السور السابقة خاصة، حيث قال تعالى في السورة السابقة ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْويمٍ﴾، فكأنما قال الله تعالى كيف يمكن أن نزوّده بالقوى العظيمة ثم نخذله ليسقط في هوة الغيّ والضلال. ما دمنا قد خلقناه معتدل القوى مزوَّدا بطاقات روحانية عظيمة فلا بد أن نجعل له غاية عظيمة، ثم لا نخذله. هذا هو الموضوع الذي ذكره الله تعالى في السور السابقة، بينما قال هنا إن الإنسان لا يقدر على إنجاز شيء بدون مساعدتنا، فهناك تعارض في الظاهر، حيث قال الله تعالى أولاً إنه قد زود الإنسان بكفاءات عظيمة، وقال الآن أنه لا يستطيع أن ينال الهدى من دون نصرتنا. فلماذا هذا التناقض؟ فأجاب الله على هذا السؤال قائلا: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾.. أي لا شك أننا زودناه بطاقات عظيمة، ولكن هذا لا يعني أنه يمكن أن يعدو قدره ويخرج عن نطاق عمله.

بالفعل نرى أن الإنسان مع كونه مزوّدًا بقدرات عظيمة، لو أساء تناول الطعام مرض، ومع أنه مزود بقوة الصبر والجلد على الصعاب، إلا أن قوته هذه محدودة أيضًا، فمثلاً لو صعد إلى ارتفاع ١٧ أو ١٨ ألف قدم أصيب بنوع من الجنون لقلة ضغط الهواء، وأصبح عدوًا لصديقه. فالثابت عن فِرق كثيرة من متسلقي الجبال- الذين كانوا أصدقاء منذ ثلاثين أو أربعين سنة ولم تهزّ صداقتَهم أحلكُ الظروف وأخطرُها- أنهم لما رجعوا من قمم جبال هملايا كانوا أعداءً ألدّاءَ. وليس ذلك إلا لأن عقل الإنسان يصاب بصدمة عنيفة حين يصل إلى ارتفاع ١٧ ألف قدم، حتى إنه لا يستطيع العيش بلطف وهدوء وحب مع أصدقائه بعد العودة من هنالك، بل يقتتل معهم على كل صغيرة وكبيرة. لقد وقع حادث مماثل مع طيار في إنجلترا، وذلك أن طائرته لما بلغت ارتفاع ١٧ ألف قدم وجد أن زميله الجالس بجانبه بطش بعنقه بشدة وأراد قتله. ولأن الطيار كان قد سمع الأحداث التي حصلت مع متسلقي جبال هملايا، فكان يعرف أن عقل المرء يفقد توازنه عندما يبلغ ارتفاعا معينًا نتيجة قلة

ضغط الهواء، فما كان منه إلا أن وجّه طائرته إلى الأسفل، وعندما وصل إلى ارتفاع ٦ أو ٨ آلاف قدم، عاد زميله إلى الصواب وأخذ يعتذر إليه.

إذن، فكل شيء له نطاق عمل لا يمكن أن يتجاوزه. هذا هو حال الإنسان. لا شك أن الله تعالى قد زوده بكفاءات عالية بوجه خاص، ولكن هذا لا يعني أنه يستطيع أن يعمل فوق نطاقه مستعينا بهذه الكفاءات. لا شك أن الحصان يمكن أن يجري ستين بل مائة ميل أحيانًا بدون توقف، لكن هذا لا يعني أنه يمكن أن يباري الإنسان في الأمور العقلية. لا شك أن الحصان سيسبق أسرعَ إنسان عند الجري، ولكن فيما يتعلق بالعقل فإنه لا يمكن أن ينجز ما ينجزه أغبى الأغبياء. فلذلك يبين الله تعالى هنا أننا قد زودنا الإنسان بقوى عظيمة بلا شك، لكن هذا لا يعني أنه يمكن أن يخرج عن حدّه وينجز ما يخص الله تعالى فقط، كلا، لن يقدر الإنسان على ذلك بل الله هو القادر. فالله تعالى قد بين بقوله ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ أنه باطلةٌ تلك الوسوسة التي تغزو بعض القلوب بأن لا حاجة أن ينـــزل الله لهم منهجًا للحياة بواسطة محمد ﷺ، فإنهم يستطيعون أن يختاروا بأنفسهم دينًا لهم. وهذه الأفكار لا تساور إلا قلب مَن قد تجاوز حدّه، إذ لا يحق للعبد أن يتدخل فيما يخص الله تعالى، فلن ينجزه إلا هو ﷻ. لا شك أن الله تعالى قد زوّد الناس بقدرات عظيمة، لكنها محدودة في كل حال، ولا شك أنه قد أعطاهم العقل، لكنه أيضا محدود في نطاق قواه الذاتية، فلن يقدروا على أن يختاروا بأنفسهم دينًا لهم، أو أن يقترحوا بعقولهم وسائل قرب الله تعالى.

أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى: هذه الجملة مفعول لأجله، أي أن الإنسان قد طغى لأنه يظن أنه مستغنٍ عنا. فمِن معاني "رأى": ظَنَّ؛ وَجَدَ؛ فَهِمَ. والرؤية هنا قلبية، إذ ذُكر لها هنا مفعولان، والرؤية القلبية لها مفعولان دائما. (تاج العروس)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا سبب تجاوُز الإنسان حدّه وتمرُّده على الله تعالى، فأخبر أنما سببه أنه يرى أنه في غنى عنّا. إنه يرى أنه مستغنٍ عن نصرة الله الذي علّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلَم. إنه يظنّ أنه سيتمكن بنفسه من إصلاح أخلاقه وعقائده وروحانيته ومدنيته وسياسته واقتصاده وحياته العائلية، فلماذا يتدخل الله في شؤونه؟

لقد رأيتُ طلبة الكليات أنهم إذا جرى معهم الحديث عن القضايا الدينية فلا يلبثون أن تخرج من أفواههم كلمات مماثلة، فيقولون مثلاً: أولاً نحن لا نؤمن أن هناك إلهًا للعالم، وإذا كان ثمة إلهٌ فلا داعي أن يتدخل في شؤوننا، فنحن مخيرون في أن نختار لأنفسنا الطريق الذي نحبّ. وهذا ما يخبر الله تعالى هنا بقوله ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾.. أي أن أكبر سبب لهذا الطغيان والتمرد أن الإنسان يظن أنه مستغنٍ عنا. فلأنه يرى أنه في غنى عن نصرة الله تعالى، فمن المحال أن يدخل في الدار الروحانية التي لا يقدر الإنسان على فتح بابها بجهوده من دون أن يهديه الله وينصره.

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾

التفسير: لقد قال عامة المفسرين إن ضمير الخطاب في قوله تعالى ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ عائد إلى الإنسان (روح المعاني، والرازي)، لكني أرى أنه يعود إلى مَن وُجِّهَ إليه الخطاب مِن قبل في قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فالمراد مِن ﴿رَبِّكَ﴾ رب محمد ﷺ.

يقول الله تعالى كيف يعتبر الإنسان نفسه في غنى عنّا، مع أنه راجع إلينا في نهاية المطاف؟ ما دام هؤلاء يُحشَرون إلى الله تعالى في النهاية، فكيف عرفوا الأعمال التي هم بحاجة إليها هنالك؟ وأنى لهم أن يعرفوا أحوال ذلك العالم بعقولهم؟ فمن المعروف أنه لو أراد الإنسان الذهاب إلى إنجلترا مثلاً، فإنه سيذهب إلى مَن زارها ليعرف منه أحوالها، ويقول له: إني لا أعرف عن هذه البلاد شيئا، وأنت تعرف

أحوالها معرفة شخصية إذ قد زرتَها، فأَخْبِرني كم أحتاج من المال للسفر إليها، وما هي الأمور التي يجب أن آخذها في الحسبان؟ كيف طقسها؟ وما هي نوعية الثياب التي أحتاجها؟ أثياب دافئة أم غير دافئة؟ وكم آخذ منها؟ ذلك أن المرء لا يعرف شدة البرد أو الحر في بلد بمجرد سماع أن ذلك البلد بارد أو حار. لقد رجعت من زيارة بريطانيا عام ١٩٢٤ في نوفمبر/تشرين الثاني، وفي ذلك الشهر يكون البرد عندنا في الهند قليلا جدا، أما في إنجلترا فيكون شديدا في نوفمبر، فذات يوم كنت في سفر في شهر أكتوبر/تشرين الأول، وكان ذلك في منتصف الليل، وكنت ألبس ملابس داخلية دافئة وفوقها قميصًا دافئًا وفوقهما صدريةً دافئة وفوقها معطفًا دافئا، وفوقها معطفًا كبيرا آخر مصنوعًا في إنجلترا، وكان أسمكَ من المعطف الهندي ثلاثة أضعاف، وكنت أسافر في سيارة مغلقة، ومع ذلك كنت أشعر بالبرد وكأنه ليس علي أية ثياب. هذا هو حال البرد في إنجلترا. أما لو سافرتَ إلى مناطق القطب الشمالي وجدتها أشدَّ بردًا من إنجلترا. أما في أمريكا فهناك مناطق ذات طقس يتقلب بسرعة، فيجد المرء حرًّا شديدا، وفجأةً يحسّ ببرد شديد، فما أن يلبس معطفًا إلا وينـــزعه، ويحدث هذا مرارا.

باختصار، عندما يذهب أحد إلى إنجلترا مثلا، يسأل مَن يعرف أحوالها عن نوعية الثياب التي يأخذ معه، وإذا أراد أن يذهب إلى أمريكا فيسأل مَن جاء منها عما يحتاجه هناك. فعامة الهنود مثلاً مغرمون بأكل الفلفل الحار، فلو أراد أحدهم الذهاب إلى أمريكا وكان شغوفا بأكلها، فلا بد أن يسأل: هل أجد الفلفل هناك أم لا؟ فإذا قيل له: لا، فلا بد أن يأخذ معه كمية منه لكي يشفي غليله منه ولا يعاني. أو لو أراد أحد الهنود المولعين بمضغ "البان"* زيارة البلاد العربية فلا بد أن يسأل المطلعين على أحوالها ما إذا كان سيجد هناك البان أم لا. وهكذا تكون لديه معلومات صحيحة عن أحوال تلك البلاد فيُعِدّ عدّته بحسبها. باختصار، إن من

* "البان" اسم شجرة في الهند، يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. (المترجم)

الأمور الطبعية أن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى بلد استشار المطلعين على أحواله، لا أن يُعِدّ عدته بناءً على افتراضاته العقلية. هذا هو الأمر الذي بيّنه الله تعالى بقوله ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.. أي لقد فقد هؤلاء صوابهم حيث يريدون الذهاب إلى الله تعالى، ولكن يقولون لسنا بحاجة إلى أن يخبرنا الله تعالى بطرق قربه. فمَن لي بهؤلاء الجهال الذين إذا أرادوا سفرًا بسيطا إلى بلد سعوا لمعرفة أحواله ممن يعرفها جيدا، وسألوه أهو بلد بارد أم حار؟ وما هي الثياب التي ينبغي أن يأخذوها، وما هي الحاجات التي يضعونها في الاعتبار، وأي الأحذية يجب أن تُلبَس هنالك، ذلك أن الأمطار تهطل بغزارة في بعض البلاد بحيث لا ينفع فيها لبس حذاء عادي، بل لو لبسته لفسد حتى المساء كليةً، ثم هنالك بلاد يكثر فيه البعوض بحيث لا يستطيع الإنسان أن يبيت ليلة واحدة من دون ناموسية. فالأحوال تختلف من بلد إلى آخر، ولا يطمئن الإنسان ما لم يكن على معرفة بأحوال البلد الذي يقصده. ويعاني المرء حتى اليوم كثيرًا في سفره من بلد إلى آخر رغم تيسُّر كثير من المرافق من قطار وبرقية وبريد في هذه الأرض التي لا يتجاوز عرضها ٢٥ ألف ميل، ولذلك نجده يسأل أهل المعرفة بالبلد الذي يقصده، وإذا لم يجد أحدا يسأل الشركات بأنه يريد زيارة بلد كذا، ويريد المعلومات الضرورية عنه، فمن أين يحصل على التذكرة، وكم يحتاج من المال، وما هي الأشياء الضرورية ليأخذها معه. إننا عندما نخرج في سفر في بلدنا الهند نأخذ معنا فراشنا، وإلا قاسينا عناء شديدا، لأننا لا نجد في الفنادق هنا فراشا، وإذا وجدناه كان متّسخًا وعَفِنًا بحيث تخاف المرض إذا نمت فيه. ولكنك إذا سافرت إلى إنجلترا حاملاً معك فراشك فسوف يضحك عليك الجميع قائلين: غبيٌّ يأخذ فراشه معه في السفر. ذلك أن المرء إذا حلّ في فندق في إنجلترا للمبيت فيُمَدّ بالسرير أيضا، حتى إن أصحاب الفنادق يغيّرون الفراش يوميا، حتى إنك لن تجد بقعة واحدة صغيرة من الوسخ على أي ملاءة، ولا يمكن أن يقدَّم لك فراش مستعمل، إذ القاعدة في كل فندق جيد أنهم يغيرون الملاءة الفوقانية والتحتانية كل يوم، ومن المستحيل أن يبيت شخص مريض في بطّانية، فتُعطى لمسافر آخر، بل يأتون بالملاءات والبطانيات النظيفة ويمدونها على الأسرة. ونفس

العادة توجد في منطقة "هزاره" عندنا في الهند، فحتى الإنسان الفقير من أهلها يحتفظ بعشر أو خمسة عشر فراشًا في بيته حتى لا يواجه أي عناء إذا جاءه ضيوف، وإذا جاء ضيف مع فراشه فإن المضيف يستاء جدا لأنه لم يثق بضيافته. وإخواننا من "هزاره" عندما يأتون إلى قاديان لحضور الجلسة السنوية لا يُحضرون فراشهم معهم، لأنهم يظنون أن أخذ المسافرِ فراشه معه خسةٌ ودناءة، فيعانون كثيرًا في أيام جلستنا هذه لأن العادة عندنا أن يأتي كل إنسان بفراشه في الجلسة. كذلك من عادة أهل "هزاره" أن المرء لا يأخذ معه أي مال في سفره، بل من واجب مضيفه أن يعطيه المال لأجرة المواصلات، وعندما يريد الرحيل يقول للمضيف بكل اطمئنان: أَعْطِنِي الآن المال لأني أريد العودة. ومنطقة "هزاره" ليست بعيدة عنا إذ يمكن الوصول إليها في ساعات، ومع ذلك انظروا الفرق الشاسع المحيّر بين عاداتنا وعادات أهلها، ولو ذهب أحد الطرفين إلى منطقة أخرى بدون معرفة أحوالها فلا بد أن يعاني معاناة كبيرة.

مِن أجل ذلك كله يقول الله تعالى هنا إن الدين ذو علاقة بالحياة بعد الموت، التي يجهل هؤلاء أحوالَها كل الجهل، وليس بوسع أحد منهم الادعاء أنه قد رأى أحوال تلك الحياة ورجع منها، ولذلك فهو ليس بحاجة إلى أي توجيه أو مساعدة بصدد الحياة بعد الموت! وما داموا يجهلون أحوالها تمامًا، وما داموا سيرجعون إلى الله تعالى في النهاية حتمًا، فمن ذا الذي سيخبرهم -سوى الله تعالى- عن الأعمال التي ستصلح حياتهم في الآخرة وعن الأخلاق التي تنفعهم هنالك، وعن العقائد التي تجعلهم من أحباء الله تعالى؟

إنها أمور لا يخبرهم أحد بها إلا الله، إذ ليس بوسع عقولهم أن تعرف أحوال تلك الحياة، ولذلك فإن تمرُّدهم واستغناءهم عن نصرة الله تعالى حماقة كبرى، إذ لم ينجح أحد في الماضي في هذا الصدد بدون نصرة الله تعالى، ولن ينجح الآن أيضًا.

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿١٠﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١١﴾

التفسير: هنا يبكّت الله تعالى الكافرين بضرب مثال، فيقول: أَخبروني هل هناك أية معقولية في تصرّف هذا الإنسان؟ ذلك أن قوله ﴿أرأيتَ﴾ يعني أَخبِرْني (المفردات). والخطاب هنا موجه للرسول ﷺ، ولكنه زجرٌ للكافرين في الواقع، وهذا أسلوب من أساليب البلاغة حيث نخاطب شخصًا ونعني غيرَه، لأنه إذا سمع ندم على تصرفه. فيقول الله تعالى: يا محمد، أخبرْني عن هذا الشخص الذي ينهى.. وينهى مَن؟! إنه لا ينهى شخصًا مجادلاً أو قتّالاً أو خدّاعًا أو لصًّا، بل ينهى عبدًا مسكينا متواضعا لله تعالى. وعَمَّ ينهاه؟ إنه لا ينهاه عن مخالفة قانون أو معارضة قضية سياسية، بل ينهاه إذا صلّى. فهذا المسكين حين يقوم لعبادة الله تعالى يسارع هذا الكافر ويأخذ بتلابيبه. فهل في الدنيا عاقل يعتبر هذا التصرف صحيحا؟ ليس بينهما خلاف سياسي أو مالي أو مدني، وليس بينهما خصام على الزعامة، كل ما في الأمر أن هذا يقف في بيته ليعبد الله، فيحاول ذلك منعه. هل فعله من المعقولية في شيء؟ هل تصرفه من الإنسانية في شيء؟ إن عبدًا يقف أمام الله للعبادة، فيتميز "أبو جهل" غيظًا. إنه لم يسلبه شيئا و لم يسرق منه مالا و لم يتعرض له بسوء حتى يرفع عقيرته غضبًا عليه. إنه يصلي في بيته قائمًا، فيثير أبو جهل وأمثاله ضجة على ذلك. فكيف يمكن لصاحب هذه التصرفات غير المعقولة أن يدعي أنه ليس بحاجة إلى نصرة الله من أجل هدايته؟

لقد ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أن بعض الناس يزعمون أنهم ليسوا بحاجة إلى أي هادٍ في أمور الدين لأنهم قادرون على أن يختاروا الطريق بناءً على ما تملي عليهم عقولهم، فيرد الله تعالى عليهم بضرب هذا المثال ويقول لهم: تقولون دائمًا بإصرار أنكم لستم بحاجة إلى عون الله تعالى في أمور دينكم، فهلا فكرتم في واقعكم لتروا ما إذا كان ادعاؤكم هذا صحيحا أم لا. انظروا إلى أبي جهل وغيره من سادتكم، فإنهم قادتكم، يشيرون عليكم برأيهم في أمور دنياكم ويقودونكم في حروبكم، ويعترف الناس بذكائهم في الأمور المادية، ولكن انظروا كيف فقدوا

صوابهم حيث يستشيطون غضبًا إذا قام عبد من عباد الله لعبادته في بيته. فكيف يستطيع أن يتخذ خطوة واحدة في الأمور الروحانية بدون عون الله تعالى مَن فقد بصيرته إلى هذا الحدّ وبلغ به الحمق والجهل في أمور الدين هذه الدرجةَ؟

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١٢﴾

التفسير: قد يجيب هنا أمثالُ أبي جهل: تعترضون علينا بأن تدخُّلنا في عبادة هذا العبد تصرف غير سليم! ولكنا نقول: لا شك أن عبادته لا تضرنا ولا قومنا ولا نظامنا، ولكنها تضره هو، فنهيناه عنها شفقةً عليه من عواقبها الوخيمة. فأجاب الله على اعتراضهم هذا بقوله ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾. والمعنى أن عبدنا هذا هو على الهدى فعلاً، فمن أساليب البلاغة استعمال أدوات الشك والاستفهام من أجل التأكيد. وهو أسلوب رائج في كل لغة، إذ يقولون في لغتنا الأردية مثلا: لعلي أفعلُ هكذا، والمراد أني سأفعل هكذا حتمًا. فقوله تعالى ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ يعني: إن كان محمد أو هذا العابد المصلِّي على الهدى، فكيف يكون مصير مَن ينهاه عن العبادة؟ والمراد: تحتجون بأنكم تمنعونه من العبادة لكي لا يتضرر بها ولا يدخل الجحيم مثيرًا غضب الله وسخطه، ولكن قولكم هذا باطل، لأن القضية تتعلق بالآخرة، والآخرة لم تروْها أنتم ولا آباؤكم، فكيف عرفتم أن عبادته تضره حتما؟ فحتى لو ظننتم أن محمدًا ليس على الحق، فلا يحق لكم أيضًا منعه من العبادة، لأن قولكم ليس مبنيًا على اليقين، بل غاية ما تستطيعون قوله: لعله ليس على الحق، لذا ننهاه عن العبادة، مع أن الواقع أنه قد يكون على الحق فتصبحون بمنعه من الظالمين. فما دامت القضية تتعلق بالآخرة التي ليس عندكم علمٌ قطعي عنها، بل غاية ما عندكم هو رجم بالغيب، فلا يحق لكم منعه بناءً على الظن فقط، إذ من الممكن أن يكون على الهدى وتكونوا على الضلال والغواية. والمعروف أنه لا يحق للمرء أن ينهى أحدا عن شيء إلا بناءً على العلم اليقيني، فمثلا إذا رأى طفلاً على وشك السقوط في بئر، ولم يكن أبواه هنالك، فيحق له كل الحق أن يمنعه من السقوط،

لأن نتيجة سقوطه الموت حتمًا، أما إذا بدأ زيد التجارة فلا يحق لعمرو أن ينهاه عنها ظنًا منه أنه قد يخسر فيها، ولو فعل ذلك لَلامه الجميع حتمًا، ولو رُفعت القضية ضده لأمر القاضي بعقابه قائلا: كيف تنهاه عن التجارة بناءً على أمر ظني غير بديهي؟ كما يجوز لنا أن ننهى شخصًا يريد أن يتناول السمّ، لأن من البديهي أن السمّ قاتل، ولكن لا يجوز لنا أن ننهى شخصًا عن تناول الطعام زاعمين أنه قد يصاب بالكوليرا أو الإسهال. باختصار، إذا كانت نتيجة عمل ما ضررا قطعيا فيحق لكل صديق وجار أن يمنع غيره منه إنقاذًا له من الضرر، ولكن إذا لم يكن الضرر يقينيًا قطعيًا فمن الحماقة أن يتدخل المرء في شؤون غيره. وحيث إن القضية هنا تتعلق بالعبادة التي لم يكن موقف الكفار بصدد نتائجها قطعيًا يقينيا، فرد الله عليهم إن قولكم إنكم تنهون محمدا عن العبادة حماية له من ضررها باطل قطعًا، لأنه ليس أمرًا قطعيًا، فغاية ما يمكن أن تقولوه: لعله في الضلال أو على الصواب، ويمكن أن يقال مقابله: لعلكم في الضلال وهو على الصواب، فما دام الأمر مشتبهًا عليكم فكيف يحق لكم منع إنسان بالغ مِن عملٍ يقوم به بإرادته ورغبته؟ إنما القاعدة السائدة في الدنيا أنه لا يحق لأحد منعُ البالغ العاقل من القيام بعمل لا يُعرف أيكون ضارا به أم نافعا له. فمثلا إذا خرج المرء في سفر أو باشرَ تجارة فقد ينتفع بها أو قد يتضرر منها، ومع ذلك لا يحق لأحد أن يمنعه من التجارة بحجة أنه يخاف أن يخسر فيها، أو يمنعه من الذهاب إلى مدينة ما بحجة أنه يخاف أن يضرّه خروجه من البيت. ومَن فعل ذلك رماه الجميع بالجنون قائلين: ما أدراك أن سفره أو تجارته ضارة به؟ غاية ما تقوله اجتهاد وقياس، ولكن من الممكن أن يربح أيضا، فمنعُك إياه من السفر أو التجارة غباء وجنون.

هذا ما يقول الله تعالى في قوله ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾.. أي أن محمدا بالغ عاقل، وهو يرى أنّ خير الإنسان في عبادة الله، فإذا كان يعبده فلا يحق لكم منعه. صحيح أن العبادة لا قيمة لها عندكم، لكن ما تقولونه أساسه مجرد الشك، فمع أنكم لا تستحسنون العبادة إلا أنه لا يحق لكم عقلاً أن تمنعوه منها. ما دامت نتيجة عمله مشكوكا فيها، فمن يضمن لكم أن نتيجة فعلكم خير حتمًا؟

أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٣﴾

التفسير: لقد قال الله تعالى للكفار مِن قبل على سبيل الاستفهام: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾.. أي لا يجوز لكم أبدًا منع محمد من العبادة، لأنكم إذا كنتم في شك من صدقه فموقفكم أيضا ليس قطعيًا، وما دامت دعواكم مشكوكا فيها، وما دمتم تشكّون في دعوى محمد، فلا يحق لكم أن تمنعوا محمدا من العبادة بناءً على الشك فقط، أما الآن فبيّن الله تعالى أمرًا آخر دعمًا للدليل الأول، فقال: إن الهدى أمر يتعلق بقلب المرء، لذا يحق لكم أن تقولوا إنا لا نعرف إن كان محمد على الهدى أم لا، ولكن كيف تتعامَون عن ورعه وتقواه؟ فإن التقوى تتعلق بأعمال الإنسان، ولا يمكن لأحد أن يقول إني لا أعرف ما إذا كان فلان يتحلى بالتقوى أم لا. فإذا كانت معرفة ما في قلبه صعبة عليكم، وإذا كنتم لا تستطيعون أن تعرفوا ما إذا كان محمد على الهدى أم لا، فهلا نظرتم إلى أعماله لتعرفوا ما إذا كان هو على الخطأ أم أنتم. بوسعكم أن تقولوا أن محمدا يعبد الله بدلاً من آلهتنا، وهذا خطأ في رأينا، ولذلك نمنعه من عبادة الله، ولكن هلا فكّرتم في تعاليمه التي يبينها بلسانه، وإلى أعماله التي يقوم بها بجوارحه؟ ألا تستطيعون أن تعرفوا برؤية تعاليمه وتعاليمكم وأعماله وأعمالكم أي الفريقين على الهدى؟ ألستم الذين تغشّون وتخدعون وتكذبون وتنغمسون في الرذائل، أوليس محمد يطيع أحكام الله، فيصل الرحم، ويصدق القول، ويعين الفقراء، ويمنع الظالمين، ويأمر بالحسنى، ويكرم الضيف، ويتحلى بقمة الأمانة، ويدعو الآخرين إلى هذه التعاليم بلسانه، فكيف يمكن أن تكونوا على الحق ويكون هذا الإنسان الذي هو تقوى مجسدة ويدعو الآخرين إليها على الباطل؟

فثبت أن هذا الدليل يدعم الدليل الأول، حيث يقول الله تعالى لا يحق لكم أن تنهوا محمدًا عن العبادة بحجة الشك في صدقه، لأنكم ما دمتم تشكّون في صدقه فمن الممكن أن يكون صادقًا فيما يفعله وتكونوا في تكذيبه على الباطل. ثم إنه يتحلى بصفة زائدة وهي أنه يعمل الحسنات ويقوم بالعبادة ويتحلى بالتقوى كما

أنه يدعو الآخرين إليها، بينما أنتم منغمسون في السيئات، أفليس هذا دليلا قويًا على أنكم تضلون عن الصدق ضلالا بعيدا.

واعلم أن سورة العلق من السور الأوائل نزولاً، ولذلك لا يذكر الله تعالى فيها النتائج، بل يُعرض عن ذكرها في كل مرة، ذلك أن أهل مكة لم يكونوا قد جهروا بالمعارضة. كانت الأيام أيام بداية البعثة و لم يُرِد الله تعالى إثارتهم، فاكتفى ببيان الأمر الواقع بالتلميحات والإشارات قائلا: أرأيت.. أرأيت؟ أي أَخبِرْني عن مصير فلان، و لم يذكر اسم الشخص المشار إليه.

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٤﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٥﴾

التفسير: كما أن الخطاب في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ موجَّه إلى الرسول ﷺ في الظاهر وإلى الكفار في الحقيقة إقامةً للحجة عليهم، كذلك الحال في هاتين الآيتين. فيقول الله تعالى لرسوله الكريم: إذا كان الكافر يقول عن عبدنا الذي يصلي: لعله مخطئ في عبادته حيث يسجد أمام الله تاركًا عبادة الأصنام التي كان قومه وأقاربه يعبدونها، فمن المحتمل أيضًا أن يكون هذا الذي ينهى هذا العبد عن العبادة مكذبًا للحق ومعرضا عن الهدى ومواليا عن التقوى والصلاح والطهارة، بينما يكون هذا العابد على الهدى وآمرًا بالتقوى وداعيًا الآخرين إلى الصلاح والطهارة؛ فما دام هذا الاحتمال واردا ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾.. أي ألا يفكر صاحب هذه الأفعال الشنيعة أن الله يراه وأنه قادر على أن يذيقه وبال عمله؟

لقد قدّم الله تعالى هنا دليلاً لطيفًا جدًا وبيّن أن هذا الكافر ينهى عبدنا عن العبادة ومع ذلك يقول: لِمَ لا أنهاه، فإنه صديقي ومن أهل بلدي، ومن حقي منعه من سلوك الطريق الخاطئ، مع أن من الوارد أن يكون هذا الناهي عن العبادة هو على الخطأ. فإذا حُقَّ له -رغم موقفه المشتبه- أن ينهى عبدنا عن العبادة، أفلا يرى هو أن هناك إلهًا في السماء يرى كل ما يجري على الأرض؟ إذا كان ينهى صاحبه

عن العبادة مغرورا بقوته وسطوته فهلا فكّر أن مَلِكَ السماء والأرض القادر القويّ الذي يرى هذا الظلم لَقادرٌ على أن يعاقبه على هذا الظلم. فإذا كان يحق لأبي جهل وأصحابه أن ينهوا محمدا عن العبادة بحجة أنهم يرونه على الخطأ، فمن حق الله تعالى أيضا أن يعاقبهم إذا كانوا هم على الخطأ. إذا كانوا يمنعون عبدنا من العبادة باعتباره على الخطأ بناءً على قياسهم الذي لا أساس له، فليعلموا أنه لا حق لهم في الشكوى إذا ما أخذهم الله على تكذيبهم وتوليهم. إذا حُقَّ لهم التدخل في شؤون الآخرين بناءً على جهلهم وقياسهم، فالله أحقُّ بالتدخل في شؤونهم بناءً على علمه بحقيقة الأمر، وعندها لا يحق لهم أن يقولوا لماذا يعذّبنا الله. فقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ إشارةٌ إلى مصير الكافرين، حيث حذرهم الله تعالى من بطشه.

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٦﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

لَنَسْفَعًا: (أصلُه لَنَسْفَعَنْ)، وسَفَعَ الشيءَ: أَخَذَه وجَرَّه بشدّة. (الأقرب)

الناصية: قُصاصُ الشَّعرِ، أي حيث تنتهي نَبْتَتُه مِن مَقْدَمِه. وقيل الناصية: مُقدَّمُ الرأسِ. (الأقرب)

التفسير: أي لن يكون كما تروْن. تظنون أنكم ستقدرون على منع عبدنا من العبادة باعتباره ضعيفًا عديم الحيلة والأعوان. كلا، هذا لن يحدث أبدًا. سوف نخيّب آمالكم، ونكسر كبرياءكم وقوتكم، ونعلن اليوم أنه إذا لم يرتدع من تعتبرونه مَلِكًا وسيدًا لكم عن شروره فسوف ننتقم منه ونجرّه بشدّة. كان من دأب الكفار أن يبطشوا بالعبيد المسلمين إذا خرجوا للصلاة أو غيرها ويجرّوهم من أرجلهم أو شعر رؤوسهم بقسوة، ويقولوا لهم: لماذا تعبدون الله معرضين عن الأصنام؟ وفي زمن الفتوحات الإسلامية، كشف عن ظهره صحابيٌّ تعرّضَ

لاضطهاد الكفار زمنًا طويلا، فأذهل الناس منظر ظهره، إذ كان جلده قد أصبح كجلد الجاموس، فظنوا أنه مصاب بمرض، فلما سألوه عن السبب قال ضاحكا: إنه ليس مرضا، بل هي آثار الظلم الذي قد صبّه عليّ كفار مكة. كنا عبيدا عندما أسلمنا وكان قانون البلد يخوّل أسيادنا أن يعاملونا كما يشاءون، فلما أصررنا على أن لا نشرك بالله أحدا، ربطوا أرجلنا بالحبال وجرّونا من أرجلنا وأحيانًا من شعرنا بقسوة، في الشوارع المليئة بالحجارة والحصوات غير مكترثين لمعاناتنا حتى تمزقت جلودنا، وتكرار هذه المظالم أفسد جلودنا وصارت كما ترون اليوم. (الطبقات الكبرى: في ذِكر خبّاب بن الأرت)

وكأن الله تعالى قد أشار هنا سلفًا إلى الأحداث التي كان سيتعرض لها المسلمون في شوارع مكة، حيث أخبر أن الكافرين يمنعون أتباع محمد ﷺ من العبادة فقط اليوم، وسيأتي يوم يجرّونهم فيه في شوارع مكة حتى تتمزق جلودهم، فيا محمد قُلْ لصاحب النفوذ والقوة منهم والذي يتباهى بقوته أنه إذا كان يعرف كيف يجرّ المسلمين فنحن أيضا نعرف كيف نجرّه. ولسوف نجرّه بشدة من ناصيته. إذا كان هؤلاء يجرّون الناصية التي تسجد أمام الله تعالى، فلماذا لا نجرّ الناصية الكاذبة الخاطئة. إذا كانت الناصية التي تعبد الله وحده يمكن أن تُجَرّ، أفلا تستحق الناصية التي تخرُّ أمام الأصنام أن تُجَرَّ؟

وبالفعل نرى أن الله تعالى قد عامل أبا جهل هكذا تماما، فلما انتهت معركة بدر أخذ المسلمون جثة أبي جهل من شعره وألقوه في الحفرة التي أُعدّت قبرًا له، عملاً بقول الله تعالى ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. (الرازي)

سيقول البعض أن جرَّ الميت من شعره عمل وحشيّ، ولكنه ليس كذلك، بل كان انتقامًا لتلك المظالم التي صُبَّت على المسلمين. والحق أنه كان انتقامًا بسيطًا جدًّا، إذ كان الكافرون يجرّون المسلمين وهم أحياء ويعذّبونهم تعذيبًا شديدًا، أما أبو جهل فجُرَّ ميتًا دون أن يشعر بالعذاب.

رأيت ذات مرة في الرؤيا أنّ قائدًا إنجليزيًا جاءني وقال ما هي فتواك؟ هل جزاء القاتل القتل أم يمكن أن يعاقَب بعقوبة أخرى؟ ثم قال حين يُقتَل بعض رجالنا في منطقة

"سَرْحَد"* تُحرق جثثهم بوضعهم في الجص، أو يقتلون بأنواع العذاب الأخرى؛ فهل يعاقب قاتلهم بالقتل أم يمكن أن يقتل بطريقة فيها تعذيب زائد. فقلت لهم إن القرآن الكريم قد بين القاعدة القائلة: جزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها، فإنما فتواي هي أن القتل بالقتل والتعذيب بالتعذيب. لا شك أن عقوبة القاتل هي القتل في الحالة العادية، ولكن لو تقرّرَ قتلُ القاتلِ بتعذيبٍ لمصلحةٍ ردعًا للأعداء من التعذيب والشرّ، فهو جائز تماما.

لا شك أن الذين لم يتدبروا ظروف ذلك العصر بجدية يقولون أحيانا أن جرَّ الميت من شعره وإلقاءه في الحفرة عملية قاسية جدًا، ولكنهم يتناسوْن أنّه لم يُجَرَّ هنا من شعره إلا الميت ومرة واحدة فقط، أما الكافرون فظلّوا يجرّون المسلمين الأحياء على الحجارة سنوات وسنوات. وليس هذا فحسب بل جرّوها مرة بعد أخرى وجروحهم لا تزال غير مندملة. ثم إنهم ما كانوا يجرّونهم على الحجارة فقط، بل كثيرا ما كانوا يضعون على صدورهم حجارة ثقيلة، ثم يقفون عليها ويرقصون ويقولون لهم: آمِنوا باللات والعزى. هذا هو الأمر الذي جعل الرسول ﷺ ذات مرة يثني على بلال خيرًا حيث قال: إن الله ليفرح بقول بلال في أذانه: "أسهد ألا إله إلا الله" بدلاً من "أشهد ألا إله إلا الله". ذلك أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة أذَّن بلال رضي الله عنه، فضحك الذين لم يعرفوه حين قال "أسهد ألا إله إلا الله" بدلاً من "أشهد ألا إله إلا الله"، إذ كان حبشيًا ولم يستطع نطق الشين صحيحًا. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: يضحك الناس على لكنة بلال، ولكن الله تعالى يفرح على عرشه حين يسمعه ينطق السين مكان الشين! ولم يكن سبب ثناء النبي ﷺ على بلال إلا لأن كفار مكة كانوا يضعون على صدره حجارة كبيرة ويأمرونه أن يشهد بأن اللات ومناة والعزى آلهة حقًّا، فكان بلال لا يسكت على ذلك، بل كان يعلن من تحت الحجارة وهو في أذى شديد: "أسهد ألا إله إلا الله". فنطقُه الشهادة بالسين بدل الشين من تحت الحجارة جعل النبيَّ ﷺ يقول إن الله تعالى يفرح على عرشه حين يقول بلال: "أسهد ألا إله إلا الله"، لأنه تعالى قد سمع منه هذا الكلام حين كان يئنّ تحت الحجارة أو يُجَرّ في شوارع مكة. فكان الله تعالى

* وهي تقع حاليا في باكستان على الحدود الأفغانية. (المترجم)

لا يفرح لمجرد أذان بلال، بل بسبب نطقه من تحت الأحجار: "أسهد ألا إله إلا الله". ولهذا السبب قال الرسول ﷺ: إنكم تنظرون إلى السين التي ينطقها بلال اليوم، لكن الله تعالى ينظر إلى السين التي كان ينطق بها وهو تحت الحجارة، ولذلك يفرح الله على عرشه بسماع صوته حين يقول في أذانه: "أسهد ألا إله إلا الله".

كيف يمكن لمن يأخذ هذه الظروف في الحسبان أن يتجاسر على القول أن إلقاء المسلمين جثة أبي جهل في الحفرة آخذين إياه من شعر رأسه ظلمٌ ووحشية؟! أرى أن المؤرخين الذين يتهمون الرسول ﷺ بالوحشية لا يفكرون في الأمر الواقع، ولو أنهم تصوروا تلك المظالم واضعين آباءهم وأزواجهم وأولادهم مكان المسلمين فلن يعتبروا أيّ فعل للرسول ﷺ ظلمًا، بل سيضطرون للقول إنه ﷺ قد عاملهم بغاية اللطف. انظروا كيف ارتكب الأوروبيون أبشع الجرائم بعضهم ضد بعض في الحرب العالمية الثانية، وكيف انتقموا من أعدائهم بظلم ووحشية، وذلك رغم أنّ أهل هذا العصر يظنون أنهم قد بلغوا ذروة التمدّن والتحضّر. أما المسلمون فلم يظلموا أحدا، وإنما ألقوا بعض الجثث في الحفرة آخذين إياها من نواصيها يوم بدر، وهم القوم الذين آذوهم في شوارع مكة على رمال محرقة وحجارة صلبة لسنوات طويلة.

فالله تعالى يعلن هنا أن هؤلاء القوم يجرّون عبادنا من نواصيهم اليوم، ونحن أيضا سنجرّهم من نواصيهم في يوم من الأيام، ولكن ليس ظلمًا، بل ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. سنجرّ الناصية التي هي كاذبة خاطئة. وعقاب المجرم ليس ظلمًا حتى تقولوا لماذا جُرَّ هؤلاء من نواصيهم. إنهم يُجَرّون من نواصيهم لأنهم مجرمون خاطئون، ليس في الدنيا قانون يعتبر عقوبة المجرم ظلمًا.

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

نادِيَه: النادي: مجلسُ القوم ومتحدَّثُهم نهارا. وقيل: المجلس ما داموا مجتمعين فيه، فإذا تَفرّقوا زال عنه هذا الاسم. (الأقرب)

إذن، فكلمة النادي لا تطلق على غرفة مثلاً ليس فيها أحد، إنما تُطلق على المجلس ما دام الناس فيه؛ شأنها شأن كلمة "المائدة" التي تعني الخوان الذي عليه الطعام، وإلا فلا يسمَّى الخوان الخالي من الطعام مائدة.

التفسير: كان الكافرون يتباهون في مجالسهم قائلين: اليوم قد اتخذنا قرارا كبيرا، واليوم قمنا بمشورة كبيرة، واليوم قررنا مقاطعة محمد وأصحابه اجتماعيًا، واليوم اتفقنا على ضربهم وإيذائهم، واليوم أجمعنا على قتلهم، فيقول الله تعالى هنا مشيرًا إلى جلساتهم تلك: سيأتي يوم نقول فيه للكفار لماذا لا تدْعون أهل ذلك المجلس؟ اذهبوا ونادوا مَن كنتم تتآمرون معهم ضد المسلمين ليل نهار، ثم انظروا هل يغنون عنكم شيئا. لقد نسجتم المكائد ضدهم فصرتم اليوم في قبضتنا، فادعوا أصحاب شوراكم وقولوا لهم أن ينصروكم إن استطاعوا.

سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

الزبانية: زَبَنَ يزْبِن زَبْنًا: دَفَعَه؛ صَدَمَه. والزبانيةُ عند العرب الشُّرَطُ. (الأقرب)

التفسير: أي أن هؤلاء يدْعون أصحابهم إلى محافلهم للتآمر ضد المسلمين، ونحن أيضا سندعو شرطتنا.

قال المفسرون الزبانية هم ملائكة النار (فتح البيان)، ولكني أرى أنهم ليسوا ملائكة النار، بل ملائكة الجنة، أعني الصحابة الذين جرّوا الكفار من نواصيهم يوم بدر ليَلقَوا مصيرهم، فمشيرًا إلى هؤلاء الصحابة يخبر الله تعالى الكافرين أن هؤلاء المسلمين المظلومين المقهورين الذين تصبّون عليهم أنواع الاضطهاد سيكونون رجال شرطتنا. أحيانًا يجد اللصوص وقطاع الطرق شرطيًا وحيدًا فيأخذونه ويضربونه، ولكن إذا جاء المدد لا يقدرون على مقاومة الشرطة. كذلك يقول الله للكافرين إنكم تبطشون بمسلم ومسلميْن وتعذّبونهما مغرورين بقوتكم وتقولون: أنّى لهؤلاء أن يضرّونا، فنحن أولو قوة ومنَعَة ونفرٍ وهم ضعفاء يُعدّون على

الأصابع، ولكنكم أيها الكفار لا تدرون أن هؤلاء الذين تروهم ضعفاء لا أنصار لهم.. إنهم رجال شرطتنا، وعندما يأتي جنودنا للانتقام منكم فسترى الدنيا كيف يجعلونكم عبرة لمن يعتبر. عندها لن يقدر أحد منكم أن يرفع إصبعًا ضد جنودنا. وبالفعل نرى كيف أذلّ الله كبراء مكة وأخزاهم في زمن غلبة المسلمين!

جاء سيدنا عمر ﷺ ذات مرة إلى مكة في زمن خلافته، فأخذ العبيد – الذين كان يجرّهم الكفار من نواصيهم في مكة – يأتون لزيارته واحدا بعد الآخر، وكان اليوم يوم عيد، وقد سبقهم أولاد كبار أعيان مكة للسلام على عمر ﷺ، ولم يمض وقت طويل حتى جاء بلال.. ذلك العبد الذي كان الكافرون يضربونه ويجرّونه على حجارة صلبة مدبَّبة تنهش جِلْدَ ظهرِه العاري، والذي كان الكفار يضعون على صدره حجرا كبيرا ويُكرِهونه على عبادة اللات والعزى، فكان يردّ عليهم: أشهد ألا إله إلا الله. فلما رآه عمر قال لأولاد الأسياد هؤلاء: أَفسِحوا المجالَ لبلال ليجلس بالقرب مني. وما إنْ أخذ مكانه في المجلس حتى جاء عبد آخر من الصحابة، فأمر عمر هؤلاء الرؤساء بإفساح المكان له قريبا منه، ثم جاء الثالث والرابع. ولأن الله تعالى كان يريد أن يذلهم، فحضر في المجلس ثمانية أو عشرة من الصحابة الأوائل من العبيد والفقراء، وفي كل مرة كان عمر يأمر الرؤساء أن يتأخروا من أجلهم. لم تكن في تلك الأيام صالات كبيرة، وإنما كان المجلس غرفة صغيرة لا تتسع للكثيرين، فلما امتلأت الغرفة بالصحابة العبيد اضطر هؤلاء الزعماء للجلوس عند الأحذية، فلم يطيقوا هذا الخزي، فخرجوا من مجلس عمر، وقالوا فيما بينهم: هل رأيتم يوما أشدَّ خزيًا! فهؤلاء العبيد الذين كانوا يخدموننا قد أُجلسوا في صدر المجلس وأمرنا عمر بترك المكان لهم حتى وصلنا مكان الأحذية، فأهاننا أمام الناس جميعا؟ فقال أحدهم وكان أذكاهم: صحيح أننا قد لقينا الخزي والهوان، ولكن السؤال: من هو المسؤول عن ذلك؟ عندما كان آباؤنا يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه كان هؤلاء العبيد يفدونه بمُهَجهم وأرواحهم، وقد صار الحُكم الآن لمحمد رسول الله، فمَن الأحقّ بالتكريم اليوم؟ أالذين آذوا رسول الله ﷺ أم هؤلاء العبيد الذين كانوا يفدونه بأرواحهم؟ فلماذا تشتكون من هذه المعاملة؟

فبسبب ما فعله آباؤنا لم نتلق المعاملة التي عوملها هؤلاء العبيد. ففهموا الأمر الواقع وقالوا فيما بينهم: لا شك أن الذنب هو ذنب آبائنا، ولكن هل من سبيل للخروج من هذه الورطة وغسل وصمة العار هذه؟ فلم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى نتيجة، فقرروا جميعا أن يسألوا عمر. فلما رجعوا إليه كان المجلس قد انفضَّ وذهب الصحابة كلهم. فقالوا لعمر: لقد جئنا لنستشيرك في الخزي الذي لقيناه في مجلسك. فقال ﷺ: لا عليكم، إنهم صحابة رسول الله ﷺ وكان يُعزّهم في مجلسه. لا شك أنكم قد تأذيتم كثيرا فيما فعلتُ، لكني كنت مضطرا. فقالوا: نحن ندرك الموقف، لكنا جئناك سائلين: هل من سبيل إلى غسل هذا العار؟ وكان عمر ﷺ يعرف ما كان عليه آباء هؤلاء الشباب من شأن وشوكة وهيبة ورعب، فلما سمع قولهم فكَّر كيف أصبح هؤلاء أذلة بسبب آثامهم، فغلبت عليه الرقة واغرورقت عيناه فلم يستطع أن يجيبهم باللسان، بل أشار بيده إلى الشام حيث كان المسلمون في حرب ضدّ جيوش قيصر الروم، وكان يعني عمر ﷺ أن وصمة العار هذه لن تمحى إلا إذا اشتركتم في تلك الحرب وضحيتم بأرواحكم. فخرجوا فورًا على جمالهم ناحية الشام، ويخبرنا التاريخ أنه لم يرجع أيٌّ منهم حيًّا. وهكذا محا هؤلاء بدمائهم الزكية وصمة عارٍ التصقت بجبينهم بأفعال آبائهم. (مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، لابن الجوزي ص ٩٨)

ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا: يمكن للكافرين أن يدعو أصحاب ناديهم وسوف ندعو رجال شرطتنا وسوف نعاملهم كما يعامَل اللصوص والصعاليك.

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾

التفسير: أي أيها الكافر لن يكون الأمر كما تفكر، ويا أيها المؤمن بمحمد لا تقبل قول العدو ولا تمتنع عن عبادة الله، بل اسجدْ، وكلما نَهَوْك عن السجود عليك أن تزداد سجودًا لنا. ستُضرب وأنت ساجد، ولكن هذه السجدة سوف تزيدك قربًا وزلفى من الله تعالى.

هناك سجدة يقوم بها الإنسان في حالة الأمن، وهناك سجدة يقوم بها الإنسان في حالة الخوف وغياب الأمن. وإن السجدة التي يقوم بها حين يُمنَع من العبادة والتي يتعرض بسببها لأنواع المصاعب ترفعه في لمح البصر رفعة عظيمة. هناك سجدة يقوم بها الإنسان مطمئنا في بيته حيث يهبّ ويتوضأ ويقف على السجادة ويخر أمام الله تعالى، ولكن هناك سجدة يتعرض صاحبها بسببها للضرب والإهانة، ومثل هذه السجدة أعظم درجة وقيمة عند الله تعالى من السجدة التي تتم في أمن ودعة.

قبل قرن من الزمان عندما كان المسلمون ينشرون دينهم، وينفقون أموالهم في سبيل الإسلام، ويتألمون شفقةً عليه، كانوا يُمدحون على ذلك، أما جماعتنا فهي تتعرض للّوم والإهانة رغم نشر الإسلام ونصرته. يقال عن هؤلاء الأوائل أنهم كانوا كبار المواسين للإسلام، بينما يقال أننا كبار أعداء الإسلام. ما هي جريمتنا؟ إن أبناء جماعتنا يُقتِّرون على عيالهم وأولادهم من أجل نشر الإسلام، حتى إن منهم من يعيشون في بلاد أجنبية ثمانيَ سنوات أو عشرًا لرفع اسم الله الأحد بعيدا عن أولادهم وأزواجهم، ويتصدى أبناء جماعتنا للكفر كالشجعان حيثما دارت الحرب بين الإسلام والكفر، وإنهم يصلّون ويصومون ويحجّون ويزكّون أموالهم، ويقرأون القرآن، ويؤمنون بالشهادتين، ويعتبرون العمل بكل حكم من أحكام الإسلام بالقلب والروح جزءا لا يتجزأ من إيمانهم، ومع ذلك يسبُّهم الناس ويثنون على المسلمين الأولين المذكورين آنفًا، مع أن إنجازاتهم لا تساوي شيئا أمام إنجازاتنا في سبيل الإسلام. فالتضحية التي كانت تُكسِب المسلمين قبل قرن المديحَ والثناءَ أصبحنا نلقى الضرب والإهانة إذا ما قمنا بها.

كذلك هناك بونٌ شاسع بين سجود الرسول ﷺ وأصحابه وسجودِ المسلمين الذين أتوا فيما بعد. ذلك أن الذين أتوا فيما بعد إذا سجدوا أثنى عليهم القوم قائلين: ما أكثرَ هذا الرجل ورعًا وصلاحًا! وما أشدَّه حرقةً وبكاءً في عبادته! أما سجود الرسول ﷺ فيمكنك معرفة قدره من الحدث التالي: ورد في التاريخ أنه ﷺ كان في سجود في يوم، فجاء الكفار بكرش جمل، وألقوه عليه وهو ساجد، وأخذوا يضحكون. فلم يستطع الرسول ﷺ أن يرفع رأسه من شدة ثقل الكرش

القذر، فبلغ ذلك فاطمةَ -رضي الله عنها- وكانت طفلة، فجاءت تجري وألقته عن الرسول ﷺ. (السيرة الحلبية، باب استخفائه ﷺ وأصحابه في دار أرقم بن أبي الأرقم)

فأنى للسجود الآخر أن يبلغ ما بلغه هذا السجود النبوي من القدر والدرجة عند الله تعالى! إن هذا السجود ليرفع الإنسان إلى أسمى منازل قرب الله تعالى في لمح البصر، أما آلاف السجدات في زمن الأمن فلعلها لا تصل إلى أعتاب الله تعالى، ولذلك يقول الله تعالى ﴿لا تُطِعْهُ﴾.. أي يا محمد، ويا صاحبَ محمد، لا تطع الكافرين، بل عليك أن تخرَّ أمام الله تعالى ساجدًا بنفس القوة التي ينهَوْنك بها عن عبادته، لأن السجود الذي تقوم به رغم هذه الموانع والعوائق سيوصلك إلى الله رأسًا.